ايفلين رييد

مشاكل تحرير المرأة

رؤية ماركسية



ترجمة: رغد قاسم







مشاكل تحرير المرأة

مكتبة الحبر الالكتروني

أسعد الكناني

Problems of women’s liberation A Marxist Approach

EVELYN REED

■ اسم الكتاب: مشاكل تحرير المرأة «رؤية ماركسية»

■ المـــــؤلــــف: إيفلين ريـد

■ ترجمة: رغد قاسم

■ الطبعة الأولى 2021

First edition, 1969

Second (enlarged) edition, 1970

Nineteenth printing, 2019

التوزيع: «منشورات نصوص» و«دار الخيال»

ISBN: 978-614-8041-10-5

■ **الإخـراج الـفنـي:** TRIGRAPHICS





لبنان ، بيروت ، شارع الحمرا ، بناية رسامني ، الطابق الثالث

العراق ، بغداد ، شارع المتنبي ، بناية مصرف الرشيد ، الطابق الاول

00961 01 740 495 ، 00961 78 938 980

www.nousous.com nousous.ir@outlook.com

إيفلين ريد

مشاكل تحرير المرأة

رؤية ماركسية

ترجمة: رغد قاسم



المحتويات

عن الكاتبة

ايفلين رييد (1905-1979) كاتبة أمريكية، مؤلفة للعديد من الأعمال التي تبحث في أصول الاضطهاد الذي تعانيه النساء والصراع في سبيل انعتاقهن.

انضمت رييد إلى الحركة الاشتراكية في العام 1940 وظلت عضوا قيادياً في حزب العمال الاشتراكي حتى وفاتها. على مدى أربعة عقود ساهمت في معارك الكفاح من أجل الديمقراطية والحقوق النقابية العمالية، وفي التضامن مع حركات النضال الثورية حول العالم.

ايفلين رييد شاركت بنشاط في الحركة الليبرالية النسائية في الستينيات والسبعينيات، كما كانت عضواً مؤسساً للتحالف الوطني لدعم حق المرأة في الإجهاض عام 1970. خلال تلك السنوات القت العديد من الخطابات والتنظيرات حول حقوق المرأة في جميع أنحاء الولايات المتحدة وفي كندا وأستراليا ونيوزيلندا واليابان وأيرلندا وبريطانيا وفرنسا.

منذ إصدار كتاب (مشاكل تحرير المرأة) للمرة الأولى عام 1969 تمت إعادة نشره وترجمته إلى عدة لغات منها الهولندية، الفارسية والفرنسية واليونانية والغوجاراتية والإيطالية واليابانية والبرتغالية والإسبانية والتركية.

مؤلفات أخرى لايفلين رييد بضمنها:

- هل البيولوجيا قدر النساء؟
- التمييز الجنسي والعلم
- تطور المرأة.

- مستحضرات التجميل، الموضة واضطهاد النساء (مشترك مع جوزيف هانسن وماري اليس واترز).

تمهيد

جيل جديد من النساء والرجال ينزلون إلى الشوارع اليوم لمناصرة حقوق المرأة. عقول جديدة من الطبقة العاملة، تناضل في العالم -من إيرلندا إلى جنوب أفريقيا إلى الولايات المتحدة- وقد تعلم هذا الجيل النظر إلى مسألة الدفاع عن تلك الحقوق والتقدم فيها، باعتباره جزء لا يتجزأ على الإطلاق من نضالهم للدفاع عن الديمقراطية والمصالح التاريخية للطبقة العاملة.

أعداد متزايدة من النساء والرجال يدركون الحاجة للعمل لحماية المكاسب التي حُصلّت بشق الأنفس مثل تشريع الحق بالإجهاض، وبرامج العمل التشجيعي[1]. مرة أخرى لا بد من الإجابة عن كل الأسئلة الجوهرية التي طرحتها الأجيال السابقة من النساء في صراعهن في سبيل حريتهن، وتساؤلات طليعة الطبقة العاملة إذا كانت من أجل اثبات القدرة على بدء التقدم نحو الاشتراكية.

لم النساء مضطهدات؟ كيف بدأ هذا الاضطهاد؟ لم يُصر المناهضون لحقوق المرأة بشدة على إدامة القوانين والتقاليد التي تحرم النساء من دور مساوٍ في المجتمع؟ من المستفيد من ذلك؟ ما هي القوى الاجتماعية التي تمتلك القدرة على انهاء حالة المواطنة من الدرجة الثانية للنساء، القوى التي لديها مصلحة في النضال من أجل تحرر النساء؟

في كتاب مشاكل تحرير المرأة لايفلين ريد يتم استكشاف الجذور الاقتصادية والاجتماعية لاضطهاد المرأة من مجتمع ما قبل التاريخ حتى المجتمع الرأسمالي الحديث. تتعقب الكاتبة كيفية نشوء النماذج والمؤسسات الأصلية للملكية الخاصة، وتداعياتها على النساء. إنها تشرح كيف أن اضطهاد النساء هو أمر يتجسد في علاقات الملكية الخاصة، ولا علاقة له بصراع بين الجنسين. في تفنيدها لأسطورة دونية المرأة، تشير ريد إلى طريق المضي للانعتاق من نير الاضطهاد.

نُشر هذا الكتاب للمرة الأولى في العام 1969 ومنذ ذلك الحين تُرجم إلى عشر لغات، هذا الجمع من المقالات تُبني بشكل كبير من قبل الناشطات المدافعات عن حقوق المرأة، والعقول العمالية الثورية في العديد من البلدان. يتم إعادة طبع الكتاب مجدداً هذا اليوم لأجل جيد جديد من المقاتلات.

ماري-اليس واترز

شباط/فبراير 1993

كلمة أولى

بعد سنوات من السبات والخضوع لما هو عليه الحال، تنهض اليوم أعداد متزايدة من النساء للارتقاء بأنفسهن والانضمام إلى تمرد السود والطلاب في الصراع الجذري ضد المؤسسة الرأسمالية. تنادي هذهِ الطليعة من المناضلات من أجل إنهاء وضع الجنس الأنثوي كمواطنات من الدرجة الثانية.

يُخضع هذا النسل الجديد من النساء المحاربات، مؤسسات وقيم مجتمعنا الحالي لنقد لاذع. تواجه هؤلاء النسويات تحديات كثيرة من الممارسات التمييزية ضد الجنس الأنثوي في التوظيف، إلى القوانين الرجعية للإجهاض التي تفرضها الكنيسة والدولة.

تزدهر المجاميع النسائية التحررية، وتلتف حول هذا النضال من أجل المساواة، وترتفع الجدالات بصورة جدية لحل المشاكل المتعددة في النظرية والتطبيق في الوقت الراهن. مثلما يجاهد الأمريكيون الأفارقة لإيجاد سبب فرض العبودية على عرقهم، وأنى لهم أن يحرروا أنفسهم بسرعة، كذلك فإن هؤلاء النسويات الجدد بوعيهن المتقد يرغبن في معرفة كيف ولِم أصبحن خاضعات للحكم الذكوري، وما الذي يتوجب فعله بخصوص ذلك.

لكن، عندما تنطلق المرأة للبحث عن تفسيرات، ستتملكها الحيرة بلا شك حيال قلة المعلومات المتوفرة حول هذا الموضوع. هناك العديد من الأعمال التي تتبع تطور النوع البشري، دون تمييز بين تطور الجنسين، من المراحل الأولى وحتى الوقت الحاضر. لكن أنى للباحث أن يجد خلاصة موثوقة لتطور النساء، خلاصة يمكنها أن تلقي الضوء على الأسئلة المحيرة عن وضعهن الاجتماعي المتغير عبر العصور؟

شحة البيانات عن موضوع هو الشاغل الأكبر لنصف العرق البشري ليس بالأمر المستغرب. فالتاريخ إلى الآن يكتب مبدئياً من وجهة نظر الطبقات المهيمنة، والجنس المهيمن.

لذا فإن الدراسة الشاملة لدور النساء في التطور الاجتماعي لا زال أمراً غير منجز. لقد بخس حق المرأة في وجود سجل حقيقي لمنجزها الحضاري، وما أنجزته النساء لم ينل التقدير المُستحق، لقد شوهت تلك الانجازات لأسباب هي ذات الأسباب التي قادت لتجاهل معارك وانتصارات مجاميع العمال والأقليات المضطهدة، بل وأكثر من ذلك.

كل شرائح المضطهدين وبضمنها النساء مضطرة الآن لكتابة وإعادة كتابة تاريخها الشخصي بذاتها، من أجل أن يُبرز بشكل واضح للعيان أوجه التشوه الذي تعرض إليه. يتوجب على تلك الشرائح أن تقوم بهذا العمل في غمار فورة نضالها للانعتاق، واعتباره أداة لذلك.

يجب بالضرورة أن يبدأ التقصي عن تاريخ شامل للنساء، بدءاً من أبعد مراحل تكوّن المجتمع. الفترات المبكرة من الزمن، أيّ الفترة الوحشية هي –أو يجب أن تكون هي- المنطقة الخاصة بعلم الأنثروبولوجي من بين بقية العلوم. بما إن علم الأنثروبولوجي هو دراسة ما قبل التاريخ، أو ما قبل الحضارة فإنه العلم الأكثر صلة بـ «مسألة المرأة» كما تشير بحوثي. إنّ نتائج البحوث في علم الأنثروبولوجي إذا ما تم تفسيرها بشكل صحيح، وإذا ما تم فهمها، يمكن لها أن تحطم الكثير من الأساطير السائدة والتحيزات ضد النساء، وبوسعها توفير ذخيرة فكرية يُعتد بها لحركة التحرر.

على سبيل المثال، كانت المرأة في مجتمعات ما قبل الحضارة مستقلة اقتصادياً، ولها مطلق الحرية في حياتها الجنسية. لم تعتمد على الزوج أو الأب أو الأبناء الذكور في معيشتها، ولم تكن ذليلة، راضية بأي شيء يُرمى لها. عملت النساء مع بعضهن في الكميونة البدائية، ومع الرجال لمصلحة المجتمع ككل، وشاركن حصاد عملهن على أساس متساوٍ. وقد اخترن لأنفسهن تدبير حياتهن الجنسية، وفقاً لعاداتهن. لم تكن النسوة القديمات محض «أشياء» يتم رعايتها، التنمر عليها، التلاعب بها، واخضاعها. لكن وبوصفهن المنتجات في العمل والمنتجات للنسل، فقد تم الاعتراف بهن راعيات للمجتمع الأمومي، وقدم لهن الرجال الاحترام والتقدير العالي.

عندما تم الكشف عن حقائق كتلك من قبل رواد علم الأنثروبولوجي في القرن السابق، تم تسخيف تلك الرؤى عن هذا الشكل المبكر من أشكال التنظيم الاجتماعي، وحظرت تلك الأفكار من التداول من قبل حراس العرف الاجتماعي، حتى يومنا هذا. كان لتلك المعارضة تأثيراً سلبياً على التقدم اللاحق لعلم الأنثروبولوجي، وعلى نفس المنوال فقد ساهمت تلك الاعتراضات في بتر وإجهاض وتأخير تكوين التاريخ المتكامل والحقيقي للنساء.

كانت هنالك أسباباً سياسية وراء هذهِ المقاومة المتعنتة؛ الكشف عن حقيقة أن النساء لم يكنَّ دوماً «الجنس الآخر» المسحوق اجتماعياً، بل على العكس، أظهرت المرأة عبرَ تاريخها قابليات ثقافية وابداع اجتماعي هائل، يتضمن آثار «تخريبية»، لكونه يهدد بتقويض أسس الفوقية الذكورية والهيمنة الرأسمالية. فلو كان صحيحاً أن الجنس الأنثوي قد لعب دوراً جوهرياً في بناء الكميونة المشاعية الأولى، لماذا لن يكون بوسعهن فعل المثل عند اعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية مستقبلاً؟

ما إن عرفت النساء المتمردات والمحبطات اليوم عن أداء أسلافهن من الإناث في زمانهن، وأي مكانة مؤثرة احتلتها المرأة في المجتمع القديم، حتى صار من الصعب عليهن الرضا بالوضع الحالي البائس. المشاركات في حركات تحرير المرأة لم يزددن شجاعة فحسب عند المعرفة بذلك، بل انخرطت النسويات بشكل أفضل في الصراع من أجل إبطال المجتمع الرأسمالي الذي يبقيهن في الأسفل، وفي بناء مجتمع جديد أفضل، حيث كلّ الناس أحرار من أيّ جنس كانوا.

كتابات مؤسسي الاشتراكية العلمية، ماركس وأنجلز وتابعيهم، أشارت إلى هذا الاتجاه. لقد تبينوا أن الاضطهاد والمنزلة المتدنية المفروضة على النساء اليوم، لا يمكن أن تكون منفصلة عن اضطهاد الطبقة العاملة من قبل الرأسماليين الانتهازيين. لذا فإن النساء بوسعهن ضمان السيطرة الكاملة على حيواتهن، وإعادة تشكيل مصائرهن كقوة متكاملة في الثورة الاشتراكية العالمية.

هذهِ هي وجهة نظر الكتابات في هذا الكتيب، ومعظمها قد سبق نشره. إنها مساهمة صغيرة في المهمة الهائلة التي تنتظر النساء في عصرنا الثوري. في صناعة حاضرنا ومستقبلنا، بغض النظر عن صعوبة هذهِ المهمة. لا شك عندي أن استمرار الصحوة الحالية، سيؤدي بنساء أكثر فأكثر لتكوين رؤية نقدية للرحلة الطويلة للجنس البشري، ستكشف النساء المفكرات أشياء جديدة، وسيصير واضحاً ومعروفاً التاريخ الحقيقي لجنسنا الأنثوي، التاريخ الذي نعرفه مسبقاً.

ايفلين رييد

15 حزيران 1969

ملاحظات عن الطبعة الثانية

حين انطلقت عشرات الآلاف من النساء في شوارع هذهِ الأمة في السادس والعشرين من آب/أغسطس من العام 1970. لإحياء الذكرى الخمسين لحق المرأة في التصويت، استبشرنا بمرحلة جديدة في صراعنا التحرري. خلال سنة واحدة فقط توسع الأمر ليُصبح ذا طابع وطني وجماهيري.

كلّ من شاركت في تلكَ المسيرة المبهرة وسط منهاتن، عندما احتلت ما يقارب الخمس وثلاثين ألف امرأة الجادة الخامسة في المدينة، وسرن بفخر في حشد كبير حتى بريانت بارك، لم يعد يخامرها شكٌ في قوتنا واتحادنا. كانت كيت ميليت صوتاً لهذا الإحساس، إذ تطلعت إلى هذا التجمع الهائل، وقالت: «وواو، نحن الآن حركة!».

تألفت مسيرة نيويورك من نساء من مختلف الأعمار، ومن كل جنبات الحياة. لم تجتذب هذهِ المسيرة تجمعات كبيرة من النسوة السود، والبورتريكيات، ونساء الطبقة العاملة وشابات الثانوية وحسب، بل العديد من الرجال المتعاطفين مع هذهِ الحركة كذلك. لقد أصبحنا قوة جماهيرية مؤثرة ولها وزنها، ولا يمكن تجاهلها بعد الآن، أو تسخيفها أو تهميشها والتهوين من شأنها. لقد أكدنا بما لا يقبل الشك إصرارنا على صنع تغييرات جوهرية، في مكانة المرأة في المجتمع الأمريكي.

برنامجنا المقبول على مستوى واسع مبني حول ثلاث مناشدات في نضال النساء للمساواة:

1- مراكز رعاية مجانية للأطفال على مدى أربع وعشرين ساعة، تحت رقابة المجتمع.

2- حرية الاجهاض عند الحاجة.

3- فرص عمل وتعليم متساوية.

هذهِ التطورات كلها علائم للتقدم. لكن لا يزال هناك المزيد. خلال السنة الماضية صدر فيض كبير من الكتب، تلبية للحاجة الماسة للتنوير وتوفير المعلومات عن الحركة. يمكن التنبؤ بإن هذهِ النتاجات لن تقل بل ستزداد وتتنوع، لكون النضال التحرري صار سبباً لنشوء أسئلة أكثر جوهرية، ابتداءً من إعادة تشكيل تاريخنا «المخفي» إلى طبيعة الحياة المعاصرة، وتبدل العلاقات البشرية.

يسعى الكتاب لإلقاء الضوء على مجموعة مسائل جوهرية أُثير حولها الجدال خلال تاريخ الحركة. ومن الطبيعي للغاية؛ وجود اختلافات، بل وتضارب في الآراء في حركة يافعة وفياضة كهذه الحركة التي تمثل توجهات متنوعة لنساء من مختلف الخلفيات. الحركة ككل، وبالذات النساء في طليعة هذهِ الحركة سيستغرقن بعض الوقت، لتحديد موقفهن من تلك المسائل بدقة، والعمل لإيجاد استراتيجية مشتركة، من أجل الاستمرار بالتقدم الأكثر فعالية للنضال.

هذهِ الطبعة الثانية الموسعة تحوي على فصلين جديدين: الأول بعنوان «النساء: طائفة، أم فئة، أم جنس مضطهد؟» وقد قُدم كخطاب في ندوة «أسباب اضطهاد النساء» في المؤتمر السادس للباحثين الاشتراكيين في نيويورك في 13-14 حزيران من العام 1970، وتم نشره في ايلول 1970 في مجلة International Socialist Review.

الفصل الآخر هو «كيف فقدت النساء التحكم بمصائرهن، والسبيل لاستعادة زمام الأمر» وقد تم تقديمه خلال جولة محاضرات في أكثر من مكان، ما يربو على ثلاثين كلية وجامعة في ربيع وخريف 1970.

كل المساهمات قُدمت من وجهة نظر ماركسية لتوضيح مشاكل محددة تلح على النساء في حركة التحرير، وبحاجة ماسة للحل. ما هو وارد في هذا الكتاب ليس كلاما قطعياً، ولا إجابة دوغمائية، لكنّه جزء من حوار في محاولة الاستكشاف الحالية لمناطق كتلك هي في غاية التعقيد والتناقض.

ايفلين ريد

أيلول 1970

الفصل الأول
النساء والعائلة
نظرة تاريخية

[2]كل شخص ها هنا الليلة يعي أننا نعيش في فترة من التوترات والاضطرابات الاجتماعية المتنامية. ودليل ذلك أنّ صور الاحتجاجات والحركات التحررية مستمرة بتصدر عناوين الصحف. مرد ذلك على الأرجح إلى تأجج الغضب من الحرب على فيتنام، حيث قامت واشنطن بضخ بلايين الدولارات في ساحات القتال، في الوقت الذي تتجاهل فيه الحاجات الأساسية للشعب الأمريكي من سكن، وتعليم، ورعاية طبية، ورعاية اجتماعية.. الخ. ثمة تصعيد في مجتمعات السود، التي تطالب بإنهاء الفقر والعنصرية. ثار الطلاب ضد النظام السائد في التعليم من إكراه وغسل للأدمغة، محاولين تحرير الجامعات والمدارس الثانوية من قبضة هيمنة الشركات الكبرى، وقادة العسكر. لذا فما من دهشة على الإطلاق أن تصاحب هذهِ الموجات من الاستياء والاشتباكات، صحوةٌ لحركة تحرير المرأة.

الشابات اليوم في طليعة الحركة، خصوصاً طالبات الجامعة، يساورهن الشك بالعادات البالية والحدود التي ضيقت عالم المرأة، إلى حد جعل حياتها مقتصرة على الزواج والبيت والعائلة. تظن هؤلاء الشابات بإنهن قد خُدعنَّ بتصديق أن النساء هن الجنس الآخر أو الجنس الأدنى، وبأنهن يجب أن يكنَّ راضيات إذا حازت الواحدة منهن على ما هو أكثر من كونها مجرد ربة بيت تشعر بالملل. أنهن على حق في الشعور بأنهن يمتلكن عقولاً ومواهباً مثلما يمتلكن أعضاء جنسية وتناسلية، وقد سُلبت منهن حرية التعبير عن قدراتهن الابداعية في أغلب مجالات الحياة الاجتماعية.

لكنهن بمواجهة صعبة في تبيان الجور الذي وقع على المرأة، وشرح حاجة كل امرأة إلى حياة ذات معنى أكبر، ومجالات أوسع من المجال الواحد الذي قيدت بهِ تاريخياً. هذا ليس مدهشاً عند مطالعة حجم وشكل المشكلة. «مسألة المرأة» ليست مسألة مجموعة من الأقليات؛ إذ تمثل النساء نصف النوع البشري. علاوة على ذلك، فإن الموضوع يلامس الأسئلة المشحونة بحساسية كبيرة مثل العلاقات الجنسية، والروابط العائلية، وغيرها من المشاكل الشخصية الحميمية.

حجر العثرة الأكبر لهذا النضال يكمن في قلة المعلومات الحقيقية عن الخلفية التاريخية للنساء والعائلة. وهذا يسبب إبقاء النساء في جهل وخضوع للأساطير الذائعة عن جنس النساء. تتمرد النساء الشابات بحس غريزي على ذلك، وتشعر كل واحدة منهن أنّ في مكان ما، وبهيئة ما، ثمة قوى غير مرئية تفرض العبودية على المرأة، وتسعى لاستمرار الوضع على ما هو عليه. لا تعرف هؤلاء الشابات كيف حدث ذلك، ثمة حاجة ملحة لتفسير: كيف وصلنا إلى هذا الطريق، ومن المسؤول عن ذلك، أو ما هو مسببه؟

لا تُدرك معظم النساء أن هذهِ المعضلة لم يكن لها وجود قبل ظهور المجتمع الطبقي، الذي سلب المرأة مكانتها العالية والمساواة التي تمتعت بها ذات مرة في الكميونة البدائية. إنّهن لا يعين إلا لماماً حقيقة أن الاضطهاد الحالي للنساء يمضي يداً بيد مع اضطهاد العمال، ومع التمييز الممارس ضد السود والأقليات الأخرى. وهن بالتالي لا يُدركن أنّ نهاية المجتمع الرأسمالي، ستفتح الباب لتأسيس العلاقات التشاركية، وعندها ستتحرر النساء، بنفس القوى التي ستحرر كل العمال والأقليات العرقية من الاضطهاد والإقصاء.

لهذهِ الأسباب فإن تقديمي لـ «مسألة المرأة» سيبدأ مع التاريخ المبكر للنوع البشري، وذلك في حقل الأنثروبولوجيا حيث تم اكتشاف كل الأشياء المهمة بخصوص تطور النساء والعائلة والبشرية ككل. أولاً دعونا نستعرض بشكل موجز تطور علم الأنثروبولوجيا نفسه، في سبيل فهم السبب الذي جعل العديد من هذهِ الحقائق يصعب استيعابها، وكيف تم تشويه وتجاهل تلك الحقائق.

علم الأنثروبولوجي واحد من أحدث فروع العلوم الاجتماعية. بالكاد يتجاوز عمره المائة سنة بقليل. في أول الأمر أُعتبر -من قبل المؤسسين- علماً للبحث في أصل المجتمع البشري وتطوره. خلال تساؤلاتهم كان العلماء الأوائل يبغون تتبع تطور الجنس البشري من البدايات حتى

طور الحضارة، أو ما يُعرف بالعصور التاريخية. لذا فإن علم الأنثروبولوجي يمكن تعريفه على أنه دراسة لـ «ما قبل التاريخ».

ولكن لكونه علماً متفرعاً عن التطور بالذات، فإن علم الأنثروبولوجي خاض سلسلة من الجدالات العنيفة مثله مثل علم البيولوجيا، والذي جاء إلى حيز الوجود في فترة متقاربة من القرن التاسع عشر، قدم هذا العلم صدمة هائلة للمفاهيم المغلوطة السائدة والشائعة عن ماضي الجنس البشري، بالإضافة لكونه شرع بفضح التحيز الجنسي ضد النساء. لذلك تم اعتباره علماً يحمل تهديداً ضمنياً، وتم وضع العوائق في طريق تطوره واكتماله بحرية، من قبل القوى المحافظة.

المعركة الأولى بين العقائد البالية والاكتشافات العلمية قد حدثت في علم الآثار (الأركيلوجيا)؛ فوفقاً للعهد القديم لا يُعتبر الجنس البشري سماويّ المنشأ فحسب، ولكنه حديث العهد لا يتجاوز عمره الخمسة آلاف سنة. لكن الحفريات العظمية، والأدوات التي وجدها في بحثهم علماء الآثار الرواد، حددت أن الحياة البشرية قد بدأت قبل ذلك التاريخ بآلاف السنين، كان هذا الكشف تحدياً للعقائد الدينية، والأفكار المتحجرة الشائعة في القرن السابق، في البدء تمت مواجهة تلكَ المكتشفات بالسخرية والتسفيه. لم تتلاش تلك المقاومة إلا بعد العديد من القرون، وبعد تراكم الكثير من الأدلة. أما اليوم فقد صار مقبولاً لدى المجتمع العلمي أن حياة البشر قد بدأت منذ مليون سنة أو يزيد، وأن أشكالاً من الكائنات الشبيهة بالبشر قد وجدت قبل تطور الجنس البشري العاقل.

المعركة العظيمة التالية ضد الأفكار الظلامية جاءت مع النظرية الداروينية للتطور العضوي، والتي بينت بوضوح الأصل الحيواني للجنس البشري. كانت تلك ضربة قاصمة للعقائد الدينية الروحانية، أكبر من الضربة السابقة التي مددت ببساطة تاريخ نشوء البشرية. لقد أنتجت هذهِ المعركة فكرة أن الإنسان ليس مخلوقاً إلهياً، لكنه كائن تطور من فرع من شبيهات الإنسان (القرد الأعلى) في العالم الحيواني. اللغط والغضب الذي تفجر حول هذهِ النظرية المناهضة للدين استمر لبضعة أجيال. كان ممنوعاً قانونياً في بعض الولايات تدريس نظرية التطور في المدارس. في هذهِ السنة فقط سُحبت ولاية أركانسس إلى النور، دخلت القرن العشرين مثل ولادة جنين بيكي ويركل، بعد أن أقدمت معلمة أنثى على خوض صراع عنيف، أجبر الولاية على الخضوع لتدريس نظرية التطور في المدارس. لقد تم كسر المقاومة في زمن أبكر بكثير في بعض أجزاء العالم الأكثر تنوراً، والنظرية الداروينية اليوم مقبولة كأساس منهجي للتحقيقات العلمية عن مطلع الجنس البشري.

حتى مع حل هذه النزاعات، والتي هي في الأساس صراع مع العقائد الدينية لم تحل كل الخلافات التي نشأت حول العلم الانثروبولوجي الناشئ. المعركة الأطول –والتي لا تزال مستمرة إلى الآن- لم تكن في حقل اللاهوت، بل في علم الاجتماع. الاستنتاجات التي رسمها مؤسسي علم الأنثروبولوجي أظهرت نوعاً مختلفاً كلياً من المجتمعات، كان قد سبق مجتمعنا الحالي في الظهور. وفي مجالات معينة من العلاقات البشرية دون غيرها، كان ذلك المجتمع أكثر تقدماً من مجتمعنا، لكون التنظيم الاجتماعي البدائي استند على ديمقراطية أصيلة، ومساواة تامة بضمنها المساواة الجنسية.

القوى الرأسمالية لم تكن لتتسامح مع العلوم من الأنثروبولوجيا إلى الاقتصاد، التي تجرؤ على طرح الحقيقة الكاملة عن مجتمعنا، وما فيه من اضطهاد واستغلال العمال من الرجال والنساء. لذا ليس مدهشاً أن المدارس الأنثروبولوجية الحديثة التي نشأت في القرن العشرين، رفضت منهج ونتائج الباحثين الرواد، وغيرت العلم إلى اتّجاه ومسار مختلف كلياً.

على أيدي هؤلاء المُحرفين، سقط علم الأنثروبولوجي من بدايته الشامخة والمبشرة كعلم يختص بالتطور الاجتماعي، إلى مجرد كتالوج توصيفي لثقافات «متنوعة». بما أنّ الكثير من الناس وبضمنهم طلاب الأنثروبولوجي بالكاد يُدركون هذا التطور في العلم، فلنتكلم إذن عن كيفية حدوثه.

النجمان التؤامان في علم الأنثروبولوجي في القرن التاسع عشر كانا لويس مورغان من الولايات المتحدة، وإدوارد تايلور في إنكلترا. هم وزملائهم كانوا تطوريين في منهجهم، والذي قام على أساس أن الجنس البشري تطور عبر سلسلة من المراحل، من العالم الحيواني إلى الحضارة. لقد كانوا ماديين حقيقيين، وهكذا فقد بدئوا بدراسة الأنشطة التي ضمنت للإنسان الأول تأمين الضرورات ومستلزمات الحياة، وعلى هذا الأساس الاقتصادي شرعوا بتحليل البنية التحتية للمؤسسات الاجتماعية، والتقاليد والأفكار، ومعتقدات الناس البدائيين.

المناصر الأكثر نجاحاً لهذِهِ النهج التطوري والمادي كان لويس مورغان، الذي استخدم هذا المنهج لرسم ثلاث مراحل أساسية في تطور البشرية: من الوحشية إلى البربرية ومن ثم التحضر. بوسعنا اليوم أن نحدد مقاييس زمنية لكل واحدة من تلك العصور. العصر الأول وهو عصر الوحشية كان الأطول حتى الآن، إذ يحتل تقريباً % 99 من تاريخ حياة البشر على الأرض. بدأت

البربرية مع ابتكار الزراعة، وحصاد المحاصيل منذ 8000 سنة مضت، أما الحضارة فقد بدأت منذ خمسة آلاف سنة ولا تزال مستمرة.

من الجدير بالذكر أن مؤسسا الاشتراكية العلمية: ماركس وأنجلز كانا متأثرين بأعمال كل من داروِن ومورغان التي منحتهما الإلهام. ماركس كان شديد الانبهار برؤى داروِن، حتى انه قام بإهدائه عمل حياته الأهم «رأس المال». تبنى أنجلز فيما بعد الإجابة على السؤال الرئيسي الذي طرحه داروِن ولم يجد له حلاً: كيف بالضبط انفصل أسلافنا عن القردة، وكيف نشأ أوائل البشر؟ وذلك في مقالته «الدور الذي لعبه العمل في تحول القردة العليا إلى الإنسان» يشرح أنجلز أن الرئيسيات تطورت إلى شبيهات الإنسان بفضل نشاطات العمل النظامية. لذا فإنّ أنجلز كان أول من قدم ما يمكن تسميته بـ «نظرية العمل كأصل المجتمع» وكما سوف نرى، فإن لذلك أهمية كبرى في موضوع المرأة.

في حالة علم الأنثروبولوجي، كتاب مورغان «المجتمع القديم» كان قد وصل إلى يدي ماركس من الولايات المتحدة عبر الاشتراكي الروسي ماكسيم كوفالفسكي. وقد بدأ ماركس على الفور بوضع الملاحظات عليه لإنتاج استنتاجاته الخاصة عن الفترة المبكرة من التطور الاجتماعي. تلك الملاحظات أكملها أنجلز بعد وفاته في كتابه الشهير: أصل العائلة، الملكية الخاصة والدولة الذي ظهر في العام 1884. وكما قال في مقدمة طبعته الأولى «في أمريكا، تمكن مورغان بطريقته الخاصة من اكتشاف منظور مادي جديد للتاريخ، مماثل لما أنشأه ماركس قبل ذلك بأربعين سنة»

وضح كتاب أنجلز التناقض الحاد بين المجتمع البدائي اللاطبقي، وبين مجتمعنا الطبقي، ورسم استنتاجات سيسولوجية متكاملة من المواد التي جمعها علماء الأنثروبولوجيا. مورغان، تايلور، ريفرز وآخرون لم يكن في نيتهم السعي للبحث عن مجتمع مساواتي، ولم يشيروا أدنى إشارة بالتالي لوجود أيّ مجتمع من هذا النوع. لكن، لكونهم من الباحثين المدققين فقد قدموا تقارير نزيهة ودقيقة عن نتائج ما عاينوه، وقد اكتشفوا الغياب الواضح للنظم الأكثر أساسية في مجتمعنا عند تفحص المجتمع الوحشي. هذهِ النقطة تم توضيحها من قبل أنجلز في كتابه.

أولاً، وسائل الإنتاج كانت ملكية مشاعة وكان كل فرد في المجتمع يعمل على قدم المساواة مع الآخرين. هذا مختلف بشكل جوهريّ عن مجتمعنا. فما من وجود لطبقة ثرية حاكمة، تقف

بصلافة لتضطهد الطبقة العاملة. وبالنتيجة فإن مورغان والبقية، أطلقوا على نظام المجتمع البدائي تسمية «الشيوعية البدائية».

ثانياً، ما من وجود لأجهزة الدولة القمعية، الجيش والشرطة كذراع تنفيذية للطبقة الغنية الحاكمة، من أجل إبقاء العمال تحت نير الاضطهاد. كان لكميونة القبائل البدائية حكماً ذاتيا ديمقراطياً، مجتمع كل أفراده متساوون بضمنهم النساء.

ثالثاً، مجتمعنا الطبقي أبويّ العرف (بطريركي)، قائم على أساس العائلة الأبوية كوحدة بناء، بينما كانَ المجتمع البدائي أمومياً. وحدة بناء ذلك المجتمع هي قوم الأمّ أو العشيرة الأموميّة، على ذلك فأن أسطورة تفوق الذكر التي مهدت لخرافة كون النساء جنس أدنى؛ إنما هي محض خرافة، وجدت فقط في مجتمعنا الأبويّ الطبقي. أما في النظام الأمومي المبكر القائم على أساس المشاعية، فلم يكن من هيمنة أو تفوق لجنس واحد على البقية، مثلما لم يكن هناك هيمنة للطبقة الغنية الحاكمة على جماهير العمال.

أخيراً فإن الأنثروبولوجيين الرواد اكتشفوا أن العائلة التي نعرفها اليوم، لم تكن موجودة في المجتمع القبائلي، كان ذلكَ المجتمع مكوناً من شبكة من العشائر، تتكون كل عشيرة من أخوة جماعية ناتجة عن تآخي الرجال (الأخوة) والنساء (الأخوات) فيما بينهم. في ظل نظامهم التصنيفي للقرابة؛ كان كل أعضاء القبيلة أخوة وأخوات، ولا يتم تحديد علاقات الأخوة وفقا للروابط العائلية المنفصلة، ولكن ذلك يحدد وفقاً لعشيرتهم التي ينتمون إليها، ودستورهم القبائلي.

عبرَ طريقتهم التاريخية المقارنة؛ قام الأنثروبولوجيين الأوائل -دون قصد منهم- بتسليط الضوء على النظم (المؤسسات) الأساسية في مجتمعنا الرأسمالي، عندما اكتشفوا غيابها الكامل في المجتمع البدائي. كانت تلك الاكتشافات مناسبة لتكون عنواناً لكتاب أنجلز (أصل العائلة الملكية الخاصة والدولة) وضح أنجلز كذلك أن النساء احتلت بغياب تلك المؤسسات مكانة عالية للغاية، وتمتعت المرأة بحرية عظيمة، شتان بينها وبين المكانة المتدنية للنساء في المجتمع الطبقي.

الكشف عن هذا التباين الحاد بين نظامين اجتماعيين – النظام المساواتي البدائي وبين نظامنا الرأسمالي المضطهد- وجه ضربة محطمة لبعض الخيالات الأساسية المدورة في ثقافتنا، سيكون من الصعب معرفة أيّ ضربة كانت مفجعة أكثر بالنسبة لأصحاب السلطة: حقيقة أن المجتمع البدائي

كان تعاونيا، مساواتياً، وديمقراطياً، أم حقيقة وجود المجتمع الأمومي (الميترارکي)، الذي أحتلتْ فيه النساء مكانة مؤثرة ومحترمة في المجتمع. من المزعج عندهم، بالمقدار نفسه، أن العائلة الأبوية، والتي قيل أنّها وجدت منذ الأبد، هي في الواقع لم تحل إلا في فترة متأخرة من التاريخ، وكان ذلك متزامناً مع التغير من الأمومية إلى الأبوية، كنظام اجتماعي.

كانت تلك النتائج، وما زاد عليها من الاستنتاجات الراديكالية التي استخلصها الماركسيون منها، هي التي اطلقت النضال الطويل والمر بين المدارس المتعارضة في الأنثروبولوجيا، الاتجاهات الجديدة التي نمت في القرن العشرين، تخلت عن المناهج والنتائج، التي توصل لها الاباء المؤسسون لعلم الأنثروبولوجي، واعتبروا مورغان وتايلور والبقية، موضة قديمة أكل عليها الزمان وشرب، على الرغم من كونهم انقسموا في اتجاهات متنوعة، من بينها الانتشارية والوظائفية والبنيوية، فان الاختلافات بينهم كانت اختلافات طفيفة، مقارنة بموقفهم الموحد من أيّ منهج تاريخي أو مادي في الأنثروبولوجي، موقفهم هذا يمثله خير تمثيل فرانز بوا في الولايات المتحدة، ورادكليف بروان في انكلترا، وليفي شتراوس في فرنسا.

هؤلاء الوصفيين من كل نوع، رفضوا أيّما موقف موحد من التطور التاريخي للإنسان، وقيدوا أنفسهم بشكل كبير بدراسة الثقافات، وتقاليد مجاميع مختلفة من الأقوام البدائيين، عن طريق مقارنتهم ببعضهم البعض، أو بالمجتمع المتحضر اليوم. هدفهم الأساسي هو توضيح أن هذا التنوع في الثقافات كان موجوداً دائماً. وهذهِ حقيقة لا يمكن نكرانها، لكن ملاحظة مبدئية كتلك، لا تنفي الحاجة العلمية للتقدم أكثر وتأسيس مراحل للتطور الاجتماعي الذي مر بهِ الإنسان، عبرَ رحلته التطورية الطويلة والمعقدة. وكما يقول البرفسور ليزلي وايت من جامعة ميشيغان عن هؤلاء الوصفيين:

> بالإضافة إلى كونهم معاديين للمادية، فإنهم معادين للفكر أو معاديين للفلسفة – يزدرون التنظير- وهم معاديين للفكر التطوري. لقد كانت مهمتهم الإصرار على عدم وجود قوانين لعلم الأعراق (الايثنولوجي) وعلى كونه علماً لا أهمية له، وأن ما من نسق، أو مسبب للظاهرة الثقافية، وأن الحضارة – بكلمات ار. ج. لويس المناصر السابق لهذهِ الفلسفة- مجرد امتزاج غير مخطط له، وقفزات عشوائية.[3]

في الحقيقة تلك «القفزة العشوائية» لا وجود لها في التاريخ، ولا ما قبل التاريخ حتى، لكنها موجودة في عقول ومناهج هؤلاء الأنثروبولوجيين لا غير. لقد أخذوا عمليات تاريخية لا صلة بينها، وفككوها إلى امتزاج بلا تخطيط للبيانات الوصفية. وبفعلتهم هذه قاموا بتقطيع أوصال الفترة الأبكر والأطول من التاريخ البشري، فترة النظام الأمومي في التنظيم الاجتماعي. مع هذا فإن هذه الفترة بالتحديد، هي التي وفرت لنا المعلومات الضرورية، لفهم المشاكل المتصلة بالنساء والعائلة، فلنتفحص هذا الجزء من العصور ما قبل التاريخية.

واحد من الخرافات المفضلة لمجتمعنا أن النساء هن جنس أدنى بحكم طبيعتهن، وهن أدنى مكانة بسبب وظائفهن الانجابية. بمرور التاريخ تم حجر النساء في المنازل لأن المرأة يجب أن تعتني بطفلها، لذا فان مكان المرأة في المنزل. بوصفها شخصا بيتياً فهي من منطلق اجتماعي ليست بشخص فعلي؛ إنها الجنس الآخر. بينما الرجال هم المتقدمين في الاقتصاد، والسياسة، والحياة الفكرية، هم الجنس المتفوق. طبقاً لِهذه البروباغندا الأبوية، صار الأمر إلى استخدام الوظائف الأمومية للمرأة لتسويغ اللامساواة بين الجنسين في مجتمعنا، وتسويغ المكانة المتدنية التي تشغلها المرأة.

الكشف عن الدور القيادي الذي احتلته النساء في المجتمع الأمومي البدائي، تحدى هذه الاسطورة الرأسمالية، كانت النساء في العصر الوحشي ينجبن الأطفال كذلك، ومع هذا كن أحراراً مستقلات، وفي مركز الحياة الاجتماعية والثقافية تماماً. لامس هذا الاكتشاف نقطة حساسة جداَ، لأن الأمر تجاوز موضوع المرأة فحسب، ليصل إلى مفهوم «العائلة المقدسة» كذلك، لقد تفاقم التباين بين المجتمعين، عند معرفة أنه وبالإضافة إلى كل الحريات الاخرى والمساواة، كانت هناك حرية في العلاقات الجنسية للمرأة، مثلما هو عليه الحال عند الرجال، مقارنة بالتمييز الحاد في القيود الجنسية الصارمة المفروضة على النساء في مجتمعنا المهيمن عليه ذكورياً.

صفة أخرى في التاريخ المبكر يجدها المتعنتون صعبة القبول، وهي حقيقة أن المجتمع البدائي لم يعرف ولم يكترث بمفهوم الأبوة الفردية لأيّ طفل، لم يعامل الأطفال مثل شيء خاضع لمفهوم الملكية الخاصة، لم يكنْ الأطفال متمايزين عن بعضهم تبعاً لثرائهم العائلي، أو الطبقة أو العرق. كل الأفراد في المجتمع العشائري يعتبرون أنفسهم آباء وأمهات لكل الأطفال، ويعيلون الأطفال بالتساوي، لم تكن هناك ما نشاهده اليوم من الحالات الصادمة من الحرمان، أو الدلال

المفرط، أو الإهمال، أو المرض، أو الجوع في الكميونة البدائية. إذ أن العوائل الفردية المُعرّفة بالأب – أو حتى الأم- لم توجد بعد، وكان أمر الأبوة المباشرة أمراً بلا أهمية تُذكر.

هذه الاكتشافات المقلقة كان من الصعب تجرعها، وتمت مواجهتها بمقاومة عظيمة. المواقف المضادة التي أتخذها المنشقون يمكن تلخيصها في موقفين:

1) لم يكن من وجود للأمومية في المجتمع على الإطلاق. والنساء في العصر الوحشي كن في مكانة متدنية مثلهن مثل أخواتهن المتحضرات اليوم. كل ما يمكن قوله إنه بسبب «تنوع» الثقافات، تبنت بعض المجاميع البشرية تقليد القرابة والانتساب الأمومي الخط، ومع هذا فليس هناك من تفسير عن سبب ظهور هذا النوع الغريب من القرابة.

2) العائلة النووية التي نعرفها اليوم لم تكن تطوراً متأخراً في التاريخ، كما يصرح الآباء المؤسسين لعلم الأنثروبولوجي والماركسيون. بل هي أزلية الوجود، ولطالما كانت العائلة عائلة أبوية.

هذان الموقفان بأن المجتمع الأمومي لم يوجد أبداً، وأن العائلة الأبوية موجودة منذ وجود الإنسان، يمثلان معاً العقبة الأكبر أمام التقدم النظري لعلم الأنثروبولوجي. دعونا نراجع باختصار بعض الدلائل على أسبقية النظام الأمومي في التنظيم الاجتماعي بغية التوصل لصورة حقيقية للتاريخ المبكر للنساء.

مصطلح الأمومية (الميتراركية - Matriarchy) صاغه باخوفن في دراسته المنشورة في العام 1861، والتي تحمل نفس العنوان باللغة الألمانية Das Mutterrecht، والذي لفت الانتباه للمكانة العالية للنساء في المجتمع القديم، محاولاً سبر غور الموضوع، والوقوف على أسبابه، ووصل إلى استنتاج أن حرية العلاقات الجنسية كانت غالبة على العصور الأولى، ولأن آباء الأطفال كانوا غير معروفين، صار للنساء مكانتهن القيادية في الفترة التي دعاها هو بعصر (حق الأمّ).

هذه الأطروحة أكدت كلّ التأكيد على الوظائف الانجابية للنساء، باعتبارها مصدر قوة، كان هذا معضلة بما أن السبب الرئيسي للمكانة المتدنية للنساء في مجتمعنا يُنسب إلى مسألة الحمل

والإنجاب، إذن كيف حدث ذلك؟ هل أن ما نعتبره أكثر القيود جدية، ألا وهي وظيفة المرأة كأم، هي بحد ذاتها السبب في إعطاء المرأة مكانة عالية للغاية في الكميونة البدائية؟

بقي هذا اللغز المحير بلا إجابة حتى العام 1927 حين نشر روبرت بريفولت دراسته (الأمهات) والتي وضح فيها أن الأمهات اكتسبن مكانتهن القيادية في المجتمع البدائي، ليس بسبب كونهن منتجات الحياة الجديدة فقط، ولكن كنتيجة لتلك الوظيفة بالذات، لقد كانت المرأة أول منتج لضروريات الحياة، بكلمات أخرى: في نقطة معينة من الصراع للنجاة، وبغية توفير الغذاء والرعاية لنسلها، قادت المرأة الطريق لابتكار أنشطة العمل، وهذه الوظيفة الجديدة هي ما أهلها لتكون المؤسسة والراعية لأبكر أشكال الحياة الاجتماعية.

العديد من الباحثين ـأمثال غوردن تشايلد، والسير جيمس فريزر، وأوتيس توفان ماسون، مثلهم مثل بريفولت، قد أشاروا إلى المدى الواسع من النشاطات الانتاجية للنساء البدائية، والدور الذي لعبنه في رفع الجنس البشري من مستواه الاقتصادي المنخفض في العصر الوحشي. خلاصة ذلك أنه خلال فترة انشغال الرجال بالصيد والحرب طوال الوقت، طورت النساء الأدوات الأساسية والمهارات والتقنيات التي مهدت للتطور الاجتماعي. لقد انتقلن من جمع الغذاء إلى البستنة البسيطة، ومنها إلى الزراعة. بسبب التنوع الكبير في الحِرف التي قمن بممارستها، والتي تضمنت صناعة أواني الطبخ، ودباغة الجلود، وصناعة المنسوجات، وبناء البيوت.. الخ، طورت النساء أساسيات علم النبات، والكيمياء، والطب، وأفرع اخرى من المعرفة العلمية. لذا فإن المرأة لم يكنَّ أول الشغيلة في العمل المنتج والصناعات فحسب، لكن التنوع في الأعمال والصناعات التي قامت بها، أدت إلى تطور ذكائها ومهاراتها المعرفية كأول المتعلمين من البشر، ثم قامت النساء بتمرير تلك المهارات وذلك الإرث الثقافي إلى الاجيال التالية.

وكما أشار أنجلز فإن كل المجتمعات تستند على تؤامين متوازيين هما الانتاج والتناسل. لذا فإن النساء ــالمنتجات للأطفال، وضروريات الحياة المادية في ذات الوقت- أصبحن قائدات للمجتمع، والمُعلمات فيه. وقد تحقق ذلك لكون العمل كان جماعياً، كمجتمع تعاوني انتاجي، ولم يكن المجتمع قد انفصل بعد إلى عوائل متفرقة، حيث تُحتجز كل امرأة لتقوم بمهمة رعاية أطفالها فقط. كان بوسع المرأة فعل كل ذلك لعدم وجود قوة حاكمة تتسلط عليها، وتقيد أفعالها وتنكر جهودها.

هذا يفسر سبب كون المجتمعات المبكرة كانت مجتمعات أمومية الدستور، تحتل فيها النساء مكانة مركزية. نشاطات المرأة الانتاجية كانت مصدراً لقوتها الاجتماعية. في هذا البلد يسمي الهنود الأمريكيين نسائهم «الأنثى الحاكمة» للعشائر والقبائل، وللنساء عندهم تقدير عالٍ. عندما جاء أوائل المستوطنين من الأمم الأوربية المتحضرة الأبوية حيث كانت مكانة النساء قد تدنت منذ زمن طويل، كانوا مصدومين كيف أن هؤلاء «المتوحشين» لم يكونوا ليتخذوا قراراً جماعياً مهماً بدون موافقة ورضا نسائهم.

ها هنا، دليل تاريخيّ يُفند أسطورة أن النساء لطالما كن جنساً أدنى، وأن مكانهن لطالما كان في البيت. فعندما نطرح نظرية بريفولت الأمومية مع نظرية العمل كأصل للمجتمع لدى أنجلز، نجد أن المرأة بعيدة كل البعد عن كونها كائن منزلي، لقد كانت النساء المبدعات والوصيات على أول تنظيم اجتماعي في تاريخ البشرية.

كما وضح أنجلز؛ ارتقى الجنس البشري لينعتق عن عالم الحيوان عبر نشاطاته الانتاجية. وقد كان النصف الأنثوي للبشرية بالذات شرف البدء بهذهِ الأنشطة الإنتاجية، ويجب لذلك أن ينسب إليهن الفضل لحصتهن الكبيرة في خلق المجتمعات البشرية والارتقاء بها. هذهِ النظرة للدور الذي لعبته النساء في التاريخ، نظرة مختلفة تمام الاختلاف عن صورة حواء في الإنجيل، التي صارت في العصر الأبوي اللاحق مسؤولة عن «سقوط الإنسان من الجنة»، بينما كانت تلك المرحلة الحاسمة من التطور الاجتماعي، هي في حقيقة الأمر سقوطاً للمرأة من الجنة.

كيف حدث هذا الانقلاب الجذري إذن؟ لقد بدأ الأمر بتغيرات كبيرة في بنية المجتمع، وانهيار نظام الكميونة البدائية الأصلية. لم يكن ممكناً الاطاحة بالنساء وهن متمسكات بالنظم التعاونية. لكن مع نشوء نظم جديدة للملكية الخاصة، والزواج الأحادي، والعائلة، تم تفريق النساء لتكون كل واحدة منهن زوجة منعزلة، وأم في بيت منعزل. عندما كانت النساء مجتمعات مثلن قوة اجتماعية عظيمة. وعند فصلهن وعزلهن عن بعضهن، وتحديد مكانة كل واحدة في المطبخ وفي رعاية الأطفال، فقدت النساء تلك القوة. هذهِ العملية التاريخية تم تجاهلها وإنكارها، من قبل من يدافع عن الأساطير التي تزعمُ أن مؤسسة الزواج والعائلة مؤسسة أزلية الوجود، ولا غنى عنها.

ادوارد ويستر مارك الذي ظل لفترة طويلة يعتبر من المؤلفين الأساسيين عن الزواج والعائلة، قام بتتبع أصول هذهِ المؤسسة حتى العالم الحيواني، جانب الصواب في طرحه لأنه لم يميز

بين الحاجات والوظائف الطبيعية التي نتشارك بها مع الحيوانات، وبين النظم الاجتماعية (المؤسسات) المحصورة بالإنسان. لذا وبينما نتشارك مع الحيوانات الوظائف الطبيعية للجنس والتناسل، لا يوجد في العالم الحيوانية مؤسسة من قبيل الزواج، أو العائلة الأبوية، يمكن الحديث عن عائلة أمومية، لكن الأصح أن تسمى الحضانة الأمومية. في الطبيعة تكون الامهات مسؤولات عن تغذية، وتوفير الرعاية لنسلهن، حتى يصبح الصغير كبيراً بما فيه الكفاية ليرعى نفسه بنفسه، لذا فان حتى تلك «العائلة الأمومية» تتفكك آخر الأمر، ويمضي أفرادها كلٌ في حال سبيله.

عند الانتقال من العالم الحيواني إلى عالم الإنسان القديم أول الأمر، لم يكن للعائلة وجود بعد، بل وجدت العشيرة أو القبيلة الأمومية، هذه المجموعة من الناس الذين عاشوا وعملوا معاً كأخوة وأخوات في القبيلة. بمعنى آخر فإن المجتمع القديم لم يكن أمومياً فقط، بل كان فوق ذلك مجتمعاً أخوياً، يتآخى فيه الرجال مع بعضهم البعض، أما بالنسبة للأطفال فقد كان كل الرجال «أخوة الأم - أخوالهم» لذلك فإن في معظم اللغات البدائية تترجم كلمة قبيلة أو عشيرة، بكلمة الأمومة أو الأخوة.

هذا المجتمع العشائري هو قفزة شاسعة تتجاوز ظروف الحياة الحيوانية. لا يوجد تآخي للذكور في العالم الحيواني؛ على العكس فإن عالم الطبيعة ممزق بالصراع والنضال، تتنافس الحيوانات مع بعضها من أجل الغذاء والتزاوج. في المجتمع العشائري من ناحية أخرى كان كل رجال العشيرة متحدين في تضامن وأخوة، على أساس المبادئ التعاونية في الحياة الانتاجية والاجتماعية.

مكانة الرجال هذهِ كأخوة للأمهات، واحد من أكثر الدلائل الواضحة على أسبقية النظام الأمومي. خلال المجتمع الأمومي حيث لا وجود للعائلة الأبوية التي لم تكن قد ظهرت بعد، أو هي لا تزال ناشئة بالكاد، فإن الأخوال كانوا يؤدون الوظيفة التي يفترض مجتمعنا أن يؤديها الآباء. وصف جيد لهذهِ المؤسسة والتي تدعى أحياناً «الخؤولة»[4] يقدمه الأنثروبولوجي آدمسون هوبل:

> الخؤولة هي الأساس النووي للأمومية وعلاقة الأخ بأخته. الزوج لا يتدخل على الإطلاق، باستثناء التناسل، فإن دور الأب استبدل جزئياً أو كلياً بالخال. العبء الأساسي في تعليم الصبيان أعمال الرجال كان يقع على كاهل الخال. يرث الصبيان معظم متاعهم من أخوالهم، الأمومية كانت منظمة بشكل مؤسساتي عالي الدقة، الأب كما نعرفه اليوم مستثنى كلياً من الصورة.[5]

هذه الحقائق عن عشيرة الأمّ وأخ الأم؛ كأصل للوحدة الاقتصادية، تدحض الادعاء بأنّ العائلة الأبوية أزلية الوجود، هذا الادعاء يقوم عادة على أساس التبعية الاقتصادية للمرأة، فما من معيل لها ولأطفالها إذا كانت بلا زوج. لقد تم اقناعنا بأن النساء لطالما كن عاجزات، كائنات تبعية، ومن دون أب يقف على شؤون كل عائلة صغيرة، سينهار المجتمع فعلياً.

لكن هذ الحقائق عن التاريخ البشري المبكر اثبتت العكس، فالمجتمع البدائي لم ينج من الانهيار فحسب، بل ازدهر وحدث ذلك بسبب نظامه المشاعي، حيث عملت النساء بشكل تعاوني، لأداء وظيفة الأمومة لكلّ الصغار، وعملَ كل الرجال بشكل تعاوني لأداء وظيفة الأبوة لكل أطفال المجتمع، لم تكن من امرأة متكلة على رجل فرد يُعيلها، ولم يكن من طفل يعتمد على أب واحد، ولا حتى على أم واحدة لتعينه.

بمرور الزمن ظهر إلى الوجود أول أشكال الاقتران أو ما يُعرف بـ»العائلة الاقترانية«، حين قام الأزواج بإزاحة الأخوال وحلوا محلهم كشركاء اقتصاديين جدد، مع ذلك ظل المجتمع محتفظاً بأساسه التعاوني، ما من وجود لتبعية اقتصادية، أو لا مساواة في العائلة، حيث يوفر المجتمع مكانة ومؤنة لكل فرد فيه، وكان كل الناضجين بمعنى اجتماعي بمثابة الآباء والأمهات لكل الأطفال، وبقي التآخي أساساً للعلاقات الاجتماعية.

عندما وصل الغزاة الاوربيين إلى هذا البلد -تقصد الولايات المتحدة: المترجمة- باحثين عن الذهب، وقابلوا السكان الأصليين هنا، لم يكن الجانبين قادرين على فهم مواقف وعادات ومعايير بعضهم البعض، كانوا يتحدثون لغتين اجتماعيتين مختلفتين، فعلى سبيل المثال لا الحصر؛ عندما كان الأب (لي جون) يسأل الهنود الايروكواس[6] كيف لهم أن يكونوا مولعين بأطفال ليسوا أطفالهم باعترافهم، نظر الهندي إليه باشمئزاز، وأجاب هذا ليس منطقياً، أنت تحب أطفالك فقط، أما نحن فنحب كل أبناء القبيلة، كلنا آباء وأمهات لكل الأطفال.

مبشر يسوعي آخر صُعق بالتناقض بين المجتمع المتحضر القائم على المال والجشع الذي تركوه خلفهم في أوربا، وبين الروح السخية للسكان الأصليين الذين استقروا بينهم، يكتب كالتالي:

> «هؤلاء الهمج لا يعرفون عبارة «مُلكي وملكك»، ويمكن القول أن ما يملكه أحدهم يملكه الجميع، من أعتنق المسيحية منهم، وخيم عند أسوار مدننا، عرف فائدة

المال، أما البقية فيمتنعون عن لمسه حتى، بل ويسمونه «الأفعى الفرنسية» يقولون أن الناس صاروا يقترفون السرقة بسببها، ويراوغون ويخادعون ليبيع الرجل أخاه من أجل المال، يستبد بهم العجب إذ رأوا فرد يمتلك مؤونة أكبر من غيره، ولا يفهمون لم يجب تقدير من يمتلك أكثر، أنهم لا يتشاجرون فيما بينهم أبداً ولا يختصمون، ولم يسرق أحدهم الآخر، ولم يحدث أن اغتابوا بعضهم على الإطلاق.[7]

بدأ تفسخ هذا المجتمع البسيط منذ حوالي ستة إلى ثمانية آلاف سنة مضت، مع إدخال الزراعة على مساحات كبيرة وتدجين المواشي، نتيجة للفائض المادي المطلوب لاقتصاد أكثر كفاءة، ولنمط جديد من الحياة. استقرت جماعات المزارعين حول الأراضي المزروعة تقلب التربة، وتربي المواشي، واشتركت في الصناعات القروية. بدأت الكوميونة القبائلية القديمة، المترامية الأطراف في الانهيار والتفكك لتصير إلى عشائر منفصلة، ثم إلى عوائل مزارعين منفصلة، وكانت من بعد ذلك غالباً ما تنفصل لتكون «الأسر الممتدة»، وأخيراً نشأت العائلة الفردية، والتي ندعوها «الأسرة النووية»، وفي خلال هذهِ العملية حلت العائلة الأبوية محل العشيرة، باعتبارها وحدة البناء الاجتماعية.

في الفترة الزراعية المبكرة، كانت تلك العائلات الأبوية، لا تزال تعمل وفقاً لمبادئ المساواة والديمقراطية المتوارثة من الزمن السابق بشكل واضح، حيث أن العائلة الزراعية كانت مجموعة انتاجية كبيرة، يعمل كل أفرادها سوياً لإعالة أنفسهم وأطفالهم والكبار منهم. بالإضافة لكل العوائل المتعاونة في مجتمع المزرعة بحمل كبير، مثل تنظيف الارض، وزراعة المحاصيل، وانشاء البيوت ومشاريع الري وهلّم جرا. آباء العوائل كانوا هم آباء القرية الذين أشرفوا على هذه المشاريع، وكانوا معنيين برفاهية المجتمع بأكمله. تحت هذهِ الظروف من الحياة الأسرية الجماعية احتفظت النساء بمكانة عالية نسبياً في الحياة الإنتاجية والاجتماعية.

لكن، وانطلاقاً من الشرق الأوسط، في هذا القاطع من العالم المسمى «مهد الحضارة»؛ ظهرت قوى اجتماعية جديدة كان لها أن تقوض وتدمر العلاقات التعاونية لتنتج نظاماً جديداً كلياً مبني على أساس الملكية الخاصة والعائلة والدولة. حصة الأسد من الثروات صارت من نصيب ثلة من المرفهين ممن تمكنوا من السيطرة على مقدرات الأمور واستغلال السواد الأعظم من الناس في العمل. صار آباء القرية القدماء ملوكاً وكهنة ونبلاء وأمراء حرب وحاشيتهم. عاشوا في معابد

وقصور وحكموا الناس. ومن هناك بدأت السلطة القمعية للدولة، من تلك الممالك الزراعية، ونضجت مع حضارة الإغريق والرومان من أجل إضفاء الشرعية وإدامة حاكمية الطبقات الغنية على الجماهير العاملة.

كانت هذهِ العملية تقويضاً للتآخي بين الرجال بقدر ما كانت تقويضاً للمجتمع الأمومي. القضاة الرومان الذين قننوا الملكية الخاصة، وشرعنوا حمايتها، وشيدوا أسس السلطة الأبوية، لتصير كلّ السلطات بيد الأب. يخبرنا بريفولت ما يلي عن أصل الدستور الأبويّ في المجتمع الطبقي:

> المبدأ الأبويّ (البطريركي) في التشريعات القانونية لانتقال الثروات من الرجل إلى ابنه، كان من إنتاج البطريركيين -أيّ أنصار النظام الأبويّ (البطريركي)- الأثرياء، أصحاب الممتلكات والذين قاموا بتفكيك نظام عشيرة الأم البدائية من خلال تشكيلهم للعائلة الأبوية، وفصلوا بذلك الأسرة عن العشيرة. ليتم إنشاء المبدأ الأبوي للتوارث، واعتبروا الأب لا الأمّ، أصلاً للقرابة.[8]

لم يقتصر تأثير ذلك على التغيير في أسس القرابة، إذ فُرضت قوانين جديدة للملكية، ففي السابق كانت جميع الممتلكات مملوكة للجميع وبالتساوي، وتنتقل الملكية من العشيرة الأم إلى العشيرة الجديدة، ليستفيد منها جميع الأخوة والأخوات. أما الآن فقد صارت الممتلكات مخصوصة لأب فرد واحد، يسلمها من بعده إلى الأبن، عبر خط الوراثة الأبوية، أما الإناث في العائلة فيكون على الأب أعالة الابنة حتى زواجها، ثم تنتقل إلى كنف زوجها، ليصير المسؤول عن ذلك. لذا فإنّ هيمنة الذكور على الإناث وسطوتهم، لم تأت نتاجاً لتفوق بايولوجي من الناحية الجسدية أو العقلية. لكن مصدرها مصدرٌ اقتصادي واجتماعي، اكتسبه الذكور بعد احتكار الملكية، ليصبح انتقالها عبر الخط الأبوي.

التغيرات الاجتماعية الجذرية التي أحدثتها مؤسسات النظام الأبوية الطبقية والتي أنتجت العائلة الأبوية، والملكية الخاصة، والدولة، كانت العامل المسبب للسقوط التاريخي لمكانة الجنس الانثوي. صارَ الرجال هم المنتجين الرئيسين في المجتمع الجديد، بينما نفيت النساء إلى البيوت كرقيق عائلي. سُلبن مكانتهن السابقة في المجتمع بالمطلق، لم يُحرمن مِنْ استقلالهن المادي فحسب،

بل حتى حريتهن الجنسية السابقة، فنشأت المؤسسة الجديدة للزواج الأحادي خدمة لحاجة الرجال أصحاب الملكية.

يُريد الرجل الثري زوجة لتُنجب له وريثاً شرعياً، يحمل اسمه من بعده، ويرث ممتلكاته. لهذه الأسباب وجد الزواج الأحادي، وشاع لهذا الغرض. وهو في حقيقة الأمر زواج أحاديّ للزوجة فقط، فوحدها المرأة من تتم معاقبتها بشدة من قبل الزوج، أو بموجب القانون إذا ما أخلت بنذور الزواج، أصبحت المرأة مطوقة من كل جهة، ملك يمين، حبيسة رهن المنزل، وظيفتها الأساسية في الحياة خدمة الزوج الذي هو سيدها ورب العائلة. مصطلح العائلة بحد ذاته جاء إلى حيز الوجود جنباً إلى جنب مع ظهور نظام الملكية الخاصة، وهو بحد اته يشير إلى العبودية المنزلية وكما يقول أنجلز:

> كلمة Famulus تعني عبد المنزل، وكلمة familia (أي العائلة) هو مجموع العبيد الذين يمتلكهم رجل واحد.. التعبير كان قد تم ابتكاره من قبل الرومان، للإشارة إلى نظام اجتماعي جديد، يترأسه رجل له زوجة وأبناء وعدد من العبيد تحت حكمه، ووفقاً للقانون الروماني كان له الحق بتقرير حياة وموت من هم ملك يمينه.

ليس معروفاً للجميع أن الزواج القانوني كان محصوراً بعد تأسيسه بالطبقات المالكة وحدها، العمال من الشعب ممن يعتاشون على العمل في الزراعة، كانوا يقترنون ببساطة، بدون الشكل القانوني للزواج. لأن الزواج القانوني في العصر البدائي لم يكن ضرورياً، وغير مرغوب فيه حتى. لكن، مع اتساع رقعة الحياة الحضرية، ومع وجود الكنيسة؛ امتد الزواج ليشمل عامة الناس، صار العامل ملزماً قانونياً بإعالة زوجته وأطفاله، ولا معيل لهم غيره. عالما الاجتماع الأمريكيان. روتير ورونر يلاحظان عواقب هذا التغيير:

> عندما كفت المرأة عن أن تكونَ منتجة، ترتب على ذلك تبعيتها الاقتصادية للرجل، ليتم القاء عبء الدعم الكلي للزوجة والعائلة على كاهل الرجل. وصار الزواج ربما للمرة الأولى في العالم عبئاً اقتصادياً بشكل حقيقي. أصر القانون والدين الناشئ على الدعم والترويج، بل وفرض فكرة جديدة مفادها أن إعالة النساء والأطفال إنما هو واجب الرجل، الملزم بهِ طبيعياً.

وبعبارة أخرى، نشأت أسطورة جديدة، للتمويه على حقيقة أن النساء لسن الوحيدات، بل الرجال العاملين كذلك يتم استغلالهم، وسلبهم حقوقهم في ظل المجتمع الرأسمالي. في السابق؛ كان المجتمع بأسره يعيل ويحمي كل فرد، سواء أكان بالغاً أم طفلاً، من المهد إلى اللحد. لكن هذه المسؤولية الهائلة تم القائها الآن على كاهل كل عائلة عل حدة، ويجب على الأسرة أن تتكيف مع ذلك على أفضل وجه ممكن. بعيداً عن كل ما يقال عن غرضها؛ صارت مؤسسة الزواج والعائلة سجناً اقتصادياً، بعد أن تم رمي عبء عائلة كاملة من الأشخاص التابعين مادياً على كاهل الأب، أو ربما كلا الوالدين. ما يزيد الطين بلة؛ أن ما من ضمان بأي شكل من الاشكال، بأن الأب أو الأم أو كليهما، سيكون بوسعهما الحصول على وظيفة دائمة، أو ينال العامل منهما أجراً عادلاً يكفي لتلبية احتياجات العائلة.

والآن، ومن خلال هذا التفكيك التاريخي، نستطيع أن نرى الاهمية الكبرى لعلم الأنثروبولوجي؛ كدليل لدراسة المرأة والعائلة، انه يبدد العديد من الأساطير التي تم الترويج لها عن الموضع، مقدماً لنا نظرة ثاقبة على الحقائق الفعلية.

هكذا، ووفقا للعهد القديم، يُفترض أن العالم قد بدأ منذ 5000 سنة مضت، لكن في حقيقية الأمر العالم الأبويّ هو من بدأ في حوالي ذلك التاريخ، وقد سبقه ما يقرب من مليون سنة من التأريخ الأمومي. لقد قيل لنا كذلك أن مجتمعنا القائم على أساس الملكية الخاصة، وما يحمله من تمييز واضطهاد وأنانية وجشع، لطالما كان موجوداً، وأنّ شروره إنما هي شرور الطبيعة البشرية التي لن تتغير، لكننا عرفنا من خلال الأنثروبولوجي أن للطبيعة البشرية وجه آخر، أنها الروح التعاونية التي وجدت في المجتمع البدائي.

وأخيراً فقد تم إقناعنا أن النساء لطالما كن جنسا أدنى وأقل شأناً، ومرد ذلك لوظيفة الإنجاب التي يختصصن بها. تُلام الطبيعة على أساس كونها المسؤولة عن المكانة المتدنية للأمهات في العرق البشري، وها هنا مرة اخرى يخبرنا علم الأنثروبولوجي العكس تماما؛ اللامساواة الجنسية لم تسببها الطبيعة، بل المجتمع الطبقي هو المسؤول عن هذا التفاوت، عندما أُطيح بالمجتمع البدائي، أصبحت أولئك الحارسات السابقات للمجتمع مهزومات، مهانات، شتتن وتفرقت قوتهن ليعشن منعزلات في العوائل الفردية، وهكذا صارت حياة كل امرأة محصورة في نطاق ضيق بين واجبات المطبخ ورعاية الأطفال.

كل هذه المعرفة التي اكتسبناها من دراسة ما قبل التاريخ؛ لن تساعد النساء فقط في فهم المعضلة الحالية، لكنها توفر في ذات الوقت إرشادات توجيهية حول كيفية المضي قدماً في النضال لتحرير المرأة، والذي عاد من جديد للصدارة. تمت كتابة العديد من المقالات، وارتفعت الكثير من الأصوات للمطالبة بتحرير النساء، والأهم من ذلك باتت الكثيرات من النساء يُعرضن عن الانعزال في البيوتات الصغيرة، وانطلقن إلى الشارع سوية في المظاهرات الحاشدة للاحتجاج ضد الحرب، مثلما خرجن ويخرجن في مظاهرات تخص الشأن النسوي، هذه التطورات لا تزال في مرحلتها المبكرة فقط، لكنها بذرة لأشياء كبيرة قادمة.

في هذه المرحلة الجديدة من النضال من الضروري أن تعمل النساء على تطوير نظرية فعالة، وبرنامج عمل يتوافق مع احتياجاتهن، قادر على تحقيق الأهداف المنشودة. وهذا أمر لم يتم بعد. على سبيل المثال؛ قابلت جريدة النيويورك تايمز العام الماضي نساء في مجموعة تحررية تدعى الآن (NOW- المنظمة الوطنية للمرأة) والتي تترأسها بيتي فريدان مؤلفة كتاب اللغز الأنثوي[9]. وقد أطلقت عليهم المجلة تسمية (الموجة النسوية الثانية) أما الموجة النسوية الأولى فقد نشأت خلال القرن الماضي، في حركة المطالبة بحق التصويت، في ذلك الوقت فازت النساء بعدد من الإصلاحات المهمة؛ منها الحق بالتملك، والحق بالتصويت، وما إلى ذلك. لذا تسال المجلة ما الذي تريده هؤلاء النساء؟

وفقاً للافتات التي تحملها النساء في المسيرات في الصور الفوتوغرافية؛ تُريد النساء حقوقا أكثر، تُريد حقها في وظائف أفضل، وأجور أفضل، تطالب بحقها في الإجهاض، والحق في تمثيل أكبر للنساء في اللجان الحكومية، وما إلى ذلك. بشكل عام، تُلخص المقالة مطالبهن بالمساواة الكلية للنساء في الولايات المتحدة، والشراكة الفعلية الكاملة مع الرجال الآن. ولكن لم يتم تسمية للقوى الطبقية التي تحول بين النساء وبين هذه المساواة، ولم تشر المقالة إلى أساليب النضال التي تحتاجها النساء لنيل هذهِ المطالب.

حركات أخرى من بينها حركة تحرير النساء ومقرها بوسطن تبحث بشكل جدي عن برنامج أساسي وتغييرات تصحيحية. إلا أن قلة من التحركات من أمثال المنظمة المدعوة scum (مجتمع بلا رجال) مطلوب منها فلسفة أكبر من مجرد «كره الرجال»، الأسماء الفاتنة، والسلوك العدواني لمجاميع مثل مجموعة Witch والتي تعمل بأسلوب فضائحي إلى حد ما، لكن، هذا ليس سيئا تماماً،

لأن هذهِ المنظمات تلفت الانتباه إلى حقيقة أن النساء يعارضن عن وعي الهيمنة والشوفينية الذكورية، ويتحدين علناً أسطورة التفوق الذكري.

عادة ما تكون الأفكار الجديدة، والخطوات التقديمة مثاراً للفضيحة، بالذات لكونها انقلاب على سنة الحال، فتعكر صفو من يرتضي الأوضاع على ما هي عليه، لكن مجرد خلق ضجة كبيرة ليس أمراً كافياً ببساطة، إذ أن من الضروري توفير أساس نظري متين يتسق مع توجهات التغير الاجتماعي الكبير الذي ننشده، وهو ما حاولت تقديمه في هذهِ المحاضرة.

الفصل الثاني
أسطورة دونية المرأة

الأسبقية التاريخية للمجتمع الأمومي لا تزال واحد من أكثر المواضيع إثارة للجدل في النظرية الأنثروبولوجية. واجه المحققون الأدلة واعترفوا -ربما بشيء من الامتعاض- بأن المجتمع البدائي كان تعاونياً، ومكوناً من نظام تآخ قبلي. مع ذلك، لا يزال المنظرون يجنحون بعيداً عن كون ذلك التآخي أمومياً، تحتل فيه النساء دوراً ريادياً.[10]

هذهِ المقاومة يأتي بعضها من افتراض مغلوط بأن المجتمع الأمومي، يجب أن يكون بضرورة الحال صورة مرآتية معكوسة للمجتمع الطبقي الحالي، فهو نسخة طبقة الأصل، ميزته الوحيدة هيمنة الإناث لا الذكور. بما أنّ السجلات التاريخية لا تحوي أدنى دليل على مثل هذا الوضع، صارَ الأمر إلى تأكيد أن المجتمع الأمومي لم يُكتب له الوجود قط.

هذهِ الاستنتاجات تفشل بالأخذ في عين الاعتبار حقيقة أن الأمومية كانت نظاماً بدائياً مشاعيّ الطابع، لا وجود فيه لخضوع شريحة من المجتمع لشريحة أخرى، وعلى نفس المنوال فلا وجود لأي خصيصة من خصائص الاضطهاد الموجودة في النظام الطبقي، من ضمنها الاضطهاد القائم على أساس الجنس.

المقالة التالية تستعرض المنجزات الثقافية والأنشطة الإنتاجية للنساء الأوائل، والأساس المادي للمكانة الاجتماعية العالية التي احتلتها النساء، هذه البيانات لا تدحض أسطورة دونية النساء فحسب، لكنها تخدم في ذات الوقت تفنيد وجهة النظر التقليدية، القائلة بأن الإنسانية لم تمر مطلقاً بالعصر الأمومي.

واحدة من العلائم البارزة في النظام الرأسمالي، والمجتمع الطبقي بالعموم؛ اللامساواة بين الجنسين، حيث الرجال سادة الحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية والفكرية، بينما تلعب النساء دورا ثانوياً، بل دور التابع المنقاد. في السنوات الاخيرة خرجت النساء من أسر المطبخ ورعاية الأطفال، لتتحدى احتكار الرجال للأدوار الاجتماعية، لكن المساواة الفعلية لا تزال غير موجودة.

التفاوت بين الجنسين علامة مميزة للمجتمع الطبقي، منذ بداياته قبل بضعة آلاف سنة مضت، وطوال مراحله الرئيسية الثلاث: عصر الرق، والإقطاعية، والرأسمالية. لهذا السبب فإن المجتمع الرأسمالي مجتمع يهيمن عليه الذكور بجدارة، هذه الهيمنة تم تثبيت أسسها وإدامتها عن طريق مؤسسات الملكية الخاصة، والدولة والكنيسة، وشكل العائلة الذي يخدم مصالح الرجال فقط.

على أساس هذه الوضع التاريخي، وبضعة ادعاءات كاذبة تم الترويج لها بشأن التفوق الاجتماعي للجنس الذكري، غالبا ما يتم اعتبار أن من البديهيات المسلم بها تفوق الرجال اجتماعياً، ومرد ذلك لطبيعتهم البيولوجية. والفوقية الذكورية وفقا لهذه الخرافة ليست بظاهرة الاجتماعية تبلورت في مرحلة معينة من التاريخ، لكنها قانون الطبيعة. والرجال كما يزعمون منت عليهم الطبيعة بإمكانيات جسدية وعقلية أسمى وأرفع مقاماً.

خرافة أخرى مكافئة تم ترويجها لتدعم هذا الادعاء -خرافة عن المرأة- تقول الأسطورة أن من البديهيات الثابتة في المقابل أن المرأة أدنى مكانة من الرجل من حيث المكانة الاجتماعية، وعلة ذلك أنها أدنى من الرجل بحكم طبيعتها البيولوجية. والأمومة دليلهم على ذلك، فالطبيعة كما يزعمون قد ابتلت المرأة بالأمومة، لتصبح أدنى موضعاً من الرجل.

هذا تزييف للتاريخ الطبيعي والاجتماعي، لا شأن للطبيعة بالأمر، والأمر كلّه أمر المجتمع الطبقي الذي خفض مكانة النساء، وزاد الرجال حظوة، لقد ربح الرجال المكانة الأسمى في المجتمع بالحرب والغزو لحيازة النساء. لكنّ الصراع بين الجنسين كان جزءاً لا يتجزأ في صراع اجتماعي أكبر، الانقلاب لاستبدال المجتمع البدائي بنظم المجتمع الطبقي. الحط من مكانة المرأة وليد نظام اجتماعي أنتجَ، وعزز ما لا يُحصى من معادلات التفاوت في المكانة الاجتماعية، والانتقاص والتمييز، لكن يتم مواربة هذا التاريخ الاجتماعي خلف أسطورة كون النساء أدنى قيمة من الرجال بحكم الطبيعة.

ذلك موضوع لا يد للطبيعة فيه، المجتمع الطبقي هو من سلب المرأة حقها في المشاركة في الوظائف العليا في المجتمع، وصب جلّ اهتمامه على وظيفة الأمومة الحيوانية، هذا الاستلاب قائم على خرافة بوجهين: فمن جهة تُمثّلُ الأمومة محنة بيولوجية، ابتلاء تفرضه أعضاء الإنجاب لدى المرأة، إلى جانب هذا الابتذال، تصور الأمومة دائماً كما لو كانت أحجية. يتم تعزية المرأة على مكانتها المتدنية كمواطنة من الدرجة الثانية عن طريق تقديس الأمهات، تُخلع على الأم هالة من القداسة والتكريم بامتلاكها «غرائز» خاصة، ومشاعر خارج نطاق فهم الرجل. التقديس والامتهان هما ببساطة وجهان لعملة واحدة ألا وهي الاستلاب الاجتماعي للمرأة في المجتمع الطبقي.

لكن المجتمع الطبقي لم يكن موجودا دائماً؛ فلم تمض عليه إلا بضعة آلاف سنة، لم يكن الرجال جنساً أسمى دائماً، ولم يكونوا على الدوام في طليعة الحياة الصناعية والثقافية والفكرية، على العكس تماماً، ففي المجتمع البدائي لم تكن النساء مقدسات، ولا مواطنات درجة ثانية، وكن قائدات للحياة الثقافية والاجتماعية.

انتظم المجتمع البدائي كمجتمع أمومي، والذي كما يُشير اسمه، كان نظاماً تقوده وتنظمه النساء لا الرجال، الفرق بين النظامين الاجتماعيين يمتد إلى ما هو أبعد من مجرد قلب دور القيادة، وتبادله بين الجنسين؛ قيادة النساء للمجتمع البدائي لم تكن قائمة على أساس عزل الرجال، بل على العكس؛ إذ لم يعرف المجتمع البدائي أيّ تفاوت اجتماعي، أو دونية، أو تمييز من أيّ نوع. المجتمع البدائي كان مجتمعاً مساواتياً تماما. في حقيقة الأمر خلال فترة ريادة النساء كان مكان الرجال في واجهة المجتمع أيضاً، فقد تم انتشالهم من الخلف ومنحهم مكانة أعلى اجتماعيا وثقافيا.

الأمومة في المجتمع البدائي كانت بعيدة كل البعد عن كونها محنة بيولوجية، أو علامة نقص تدل على انحطاط الشأن، اعتبرت الأمومة هبة طبيعية عظيمة، زودت النساء بالقوة والمكانة المهمة، وكانت لذلك أسباباً وجيهة.

نشأ البشر في المملكة الحيوانية، وقد وهبت الطبيعة جنساً واحداً، هو الجنس الأنثوي أعضاء تختص بالأمومة ووظائفها، وهذهِ الهبة البيولوجية من لدن الطبيعة، هي التي يسرت عبور الجسر بين الحيوانية والإنسانية؛ وضح روبرت بريفولت بجلاء في كتابه (الأمهات) كيف قامت الإناث بهذا الدور، نتيجة لكون الجنس الأنثوي في نوعنا البشري مسؤول عن رعاية والتغذية الصغار والعناية بهم، وتوفير الحماية.

لكن ومثلما بينَّ ماركس وأنجلز؛ كل المجتمعات في الماضي والحاضر قد نهضت بفضل العمل، قابلية النساء على الانجاب ليست السبب الأساسي البسيط، فكل إناث الحيوانات تقوم بفعل الولادة، ما قلب المعادلة بالنسبة للنوع البشري هو حقيقة أن الأمومة كانت المختبر الذي انصهرت فيه مهارات الأمومة واندمجت بالعمل لدى الإنسان الأول لينتج النظام الاجتماعي.

كانت الأمهات هن اللواتي افتتحن الطريق نحو العمل، وبناء على ذلك فقد مهدن الطريق لنشأة الإنسانية. أصبحت الأم أول منتج في التاريخ؛ فهي الصانعة والمزارعة وراعية الحياة العلمية والفكرية والثقافية. وعلة ذلك تكمن في طبيعة الأمومة ذاتها واندماج الأمومة بالعمل. هذا الاندماج والتداخل لا يزال قائماً في لغة الناس البدائيين؛ حيث مصطلح الأمّ، مطابق لمصطلح المنتج – الخالق.

نحن لا نستخلص من هذا أن الأنثى جنس أسمى بحكم الطبيعة، فقد نشأ كل جنس وفق قوانين التطور الطبيعي، ليلعب دوراً محدداً لا غنى عنه، مع ذلك، فلو استخدمنا نفس المقاييس التي يستخدمها الرجال اليوم بشأن القيادة الاجتماعية عبرَ التاريخ، يتوجب علينا القول عندها بأن النساء كنَّ قادة المجتمع لفترة طويلة قبل الرجال، لفترة أطول بكثير من الزمن.

هدفنا من هذا العرض تحطيم الخرافة مرة واحدة وإلى الابد؛ الخرافة التي يغذيها المجتمع الطبقي بأن النساء أدنى شأناً بحكم الطبيعة البيولوجية. الوسيلة الأكثر فعالية لتحطيمها تكمن أولا وقبل كل شيء في تفصيل نشاطات النساء في المجتمع البدائي.

السيطرة على موارد الطعام

السعي للحصول على الغذاء هو الشغل الشاغل والأكثر إلحاحاً عند أي مجتمع. فلن يرتقي العمل ويتقدم، مالم يحصل الناس على التغذية. بينما تقتات الحيوانات على صيد الطعام، والبحث عنه بشكل يومي، كان محتماً على البشرية السيطرة على موارد الطعام بشكل من الأشكال، للمضي قدماً في مسيرة التطور. التحكم بموارد الطعام ضرورة لا بد منها، فلا يكفي تأمين الطعام ليوم واحد، يلزم أن يكون لديكَ فائض من القوت للغد، وأن تمتلك القابلية على خزن الطعام للاستخدام المستقبلي، والحفاظ على ذلكَ المخزون.

من وجهة النظر هذه فإن التاريخ البشري يمكن تقسيمه إلى قسمين أساسيين: عصر جمع القوت، والذي امتد لمئات الآلاف من السنين، وفترة إنتاج القوت، والذي بدا مع اختراع الزراعة وتربية الماشية، منذ ما لا يزيد عن ثمانية الآلاف سنة خلت.

في عصر جمع القوت، كانَ التقسيم الأول للعمل غاية في البساطة، ويتم وصفه بالعموم بتقسيم العمل على أساس الجنس، أو توزيع العمل بين الجنسين. (ساهم الأطفال بحصتهم من العمل كذلك؛ ما أن يكبر الطفل بما فيه الكفاية حتى يبدأ تدريبه: تتمرن البنات على الحِرف النسائية، والصبيان على صنعة الذكور) هذا التقسيم للعمل، كانت تمييزاً بين الجنسين في سبل جمع الطعام وأنواعها؛ كان الرجال صيادون، وهي مهنة بدوام كامل، وقد جعلهم الصيد يبتعدون عن المنزل، أو المخيم لفترات قد تطول وقد تقصر. بينما تجمع النساء المنتجات النباتية، حول مناطق سكناهن في المخيمات وما جاورها.

يجب أن يكون مفهوما أنه فيما عدا مناطق قليلة محددة في العالم، وفي مراحل تاريخية محددة، لم تكن اللحوم (الموردة من قبل الرجل) المصدر الأساسي للقوت، بل الخضار (التي تجمعها النساء)، كما يقول أوتيس توفتون مايسون:

> أينما ذهبت قبائل الجنس البشري، تعثر النساء على نبات يكون هو المصدر الرئيسي الذي تعتمد عليه القبيلة، في بولينيزيا كان ذلك نبات القلقاس أو فاكهة الخبز.[11] وفي افريقيا كان النخيل وحلوى التابيوكا، والدخن والبطاطا. وفي آسيا كان الرز، وفي أوربا كانت الحبوب، وفي امريكا كانت الذرة والبطاطا وجوز البلوط، وحبوب الصنوبر في بعض الأماكن.[12]

الكسندر غولدن وايزر له الرؤية ذاتها:

> في كلّ مكان كانت الإعالة الأكثر انتظاماً والتي تعتمد وتعول العائلة عليها، تيسرها النساء بجهودهن، لقربهن من المنزل أكثر من الزوج أو الأبن وهو الصياد المرتحل في الأقاصي. هذا الأمر مألوف في حقيقة الأمر بين كل الناس البدائيين، يعود الرجل إلى المنزل في مطاردة تطول أو تقصر، ومن الممكن أن يرجع خالي الوفاض،

جائعاً يتوق للطعام، في ظل ظروف كهذه كان الطعام موجوداً من الخضروات ليطعمه وباقي العائلة.[13]

وهكذا كانت المرأة الجامعة للقوت، لا الرجل الصياد مصدراً للقوت المعول عليه.

لكن المرأة كانت صيادة هي الأخرى، تعتمد على حيلة الصيد البطيء للحيوانات الصغيرة، بالإضافة إلى نبش الدرنات وجذور النبات وما إلى ذلك، جمعت النساء اليرقات، والحشرات والعضاءات والرخويات، وحيوانات صغيرة مثل الأرانب البرية، والجرابيات[14] وما شابه. أنشطة النساء تلك مهمة بشكل كبير، لأن الكثير من هذه الحيوانات الصغيرة كانت تُنقل إلى المخيم وهي لا تزال على قيد الحياة، هذه الحيوانات وفرت الأساس والخبرة لترويض الحيوانات واستئناسها لاحقاً.

وهكذا تراكمت في متناول النساء كل التقنيات التي قادت في نهاية المطاف لتدجين الحيوانات، والتدجين يعود بجذوره إلى خصال الأمومة، وفي هذا الشأن يكتب مايسون:

> التدجين في أوله كان ببساطة حالة تبن لرضيع عاجز. صغار الحيوانات والحملان أو الجراء كان يتم جلبها لمنزل الصياد، تطعمها الأم وتربيها مع أطفالها، بل أنها تقوم بإرضاعها. لا حصر للمؤشرات الدالة على أن أسر الحيوانات البرية وترويض المخلوقات البرية ارتبط بالنساء دائماً، لاسيما عملية إرضاع الصغار، والقبض على حيوانات.[15]

بينما قادت إحدى أنشطة جمع الطعام لدى النساء إلى اكتشاف تدجين الحيوانات، جعلهن نشاط آخر رائدات في الزراعة، كان ذلك استخدام عصا الحفر – واحدة من أولى أدوات البشرية- في نقب الأرض بحثاً عن طعام. حتى يومنا هذا، لا تزال بعض المناطق الغير متحضرة في العالم تستخدم عصا الحفر باعتبارها جزء لا يتجزأ من المرأة، لا تنفصل عنها كما لو كانت طفلها. على سبيل المثال لا الحصر، حينما اكتشف الرجل الأبيض هنود شوشوني[16] في نيفادا ووايومنغ، أطلق عليهم تسمية (الحفارون)، فقد كانوا لا يزالون يوظفون هذهِ التقنية في تأمين الإمدادات الغذائية.

ومن خلال أنشطة الحفر تلك، اكتشفت المرأة الزراعة في آخر المطاف بلا شك. السير جيمس فريزر يعطي وصفاً جيداً لهذه العملية في مراحلها المبكرة. ويضرب المثل بالسكان الأصليين في وسط فيكتوريا في استراليا، ويكتب:

«اعتادوا عند البحث عن الجذور- استخدام عصا طولها سبع أو ثمانية أقدام، تمرر على النار لزيادة صلابتها وتحديد نهايتها، وتستخدم كذلك كسلاح عند الهجوم أو الدفاع. ومن ذلك تم التطور من الحفر إلى الزراعة الممنهجة للتربة».

«العصا الطويلة تطعن الأرض بقوة، وتُهز وهي في مكانها لتحريك التربة، ومن ثم يتم التقاطها بسرعة كبيرة وكشطها بأصابع اليد اليسرى. لكن جهد العمل كان كبيراً قياساً بالكمية المنتجة، من أجل الحصول على البطاطا يجب حفر حفرة محيطها نصف بوصة بعمق قدمين، وقد كانت تلك مهمة النساء والأطفال، وتستهلك جزءاً كبيراً من وقتهم».

«في المناطق الخصبة، حيث تنمو البطاطا بوفرة، تكون الأرض مليئة بالثقوب، أنّها مخرمة حرفياً، وبفضل نقب الأرض للبحث عن الجذور والبطاطا تم تخصيب التربة واثرائها، وبالتالي زيادة في منتوج المحاصيل. من الطبيعي أن يساهم الحفر بالعصا بتسهيل عملية الزرع بالبذور، ليعطي تلك النتائج، فلا شك أن البذور كانت تحملها الريح، ويثمر بعضها».[17]

بمرور الوقت تعلمت النساء كيف تساعد الطبيعة في استزراع الحقول، وحماية النباتات النامية، وأخيراً تعلمن زراعة البذور، وانتظارها حتى تنمو.

لم تتحسن كمية وجودة الثمار فقط، بل تم إنتاج سلاسل كاملة من الأنواع الجديدة المهجنة، وفقا لتشابي وكون:

«من خلال الزراعة تم انتقاء العديد من الأنواع الجديدة، وتغيير العديد من الأنواع القديمة بشكل جذري، تمكن الناس في ميلانيزيا من جعل نبات اليام[18] أكبر بستة أقدام، وقد ازداد سمكها بمعدل قدم أو أكثر. لم تكن الدرنات البائسة التي يحفر الأسترالي في البرية للحصول عليها أسمك أو أكبر بكثير من السيجار».[19]

يلخص مايسون الخطوات المتخذة في الزراعة على النحو التالي:

«تطور الزراعة البدائية حدث أولا عن طريق البحث عن النباتات للأكل، ثم الانتقال للعيش بقرب أماكن تواجدها، والاعتناء بها، ومن ثم بذر البذور وزراعتها باليد، وأخيراً استخدام الحيوانات للمساعدة في الزراعة».[20]

وفقاً لـ(غوردن تشايلد) كل نبات تغذية مهم، ونباتات أخرى مثل الكتان والقطن، كان يتم اكتشافها من قبل النساء في العصور السابقة للحضارة.[21]

اكتشاف الزراعة وتدجين الحيوانات مكنا الجنس البشري من العبور من عصر جمع القوت إلى عصر انتاج الغذاء، وتلك أولى انتصارات البشرية للسيطرة على أمدادات الطعام. وقد تحقق ذلك بفضل النساء. الثورة الزراعية العظيمة، والتي وفرت الغذاء للحيوان والإنسان على السواء، كانت تتويجاً لإنجازات النساء في العمل بعصا الحفر.

امتلاك زمام السيطرة على موارد الطعام يعني ببساطة عدم الاعتماد على ما تجود بهِ الطبيعة فقط، كان الأمر يتطلب أولاً وقبل كل شي عمل النساء اعتماداً على قدراتها التعلمية، وقدرتها على الابتكار والاختراع. كان على النساء أن يعثرن على كلّ الطرق المطلوبة للزراعة، وما يناسب كل نوع من أنواع النباتات أو الحبوب. كان عليهن ابتداع العديد من التقنيات مثل درس التربة والغربلة والطحن وما شاكل. لقد اخترعن كل الأدوات المختصة والضرورية لحراثة التربة، والحصاد والخزن للمحاصيل، وتحويل النبات إلى طعام مستساغ.

وبعبارة أخرى لم يكن النضال للفوز بالسيطرة على موارد الغذاء الفضل في تطوير الزراعة فحسب، بل أدى في ذات الوقت لبدء العمل على الأساسيات الأولى للتصنيع والعلوم. وكما كتب مايسون:

«تم بناء الحياة الاقتصادية للمرأة بالكامل حول إمدادات الطعام، من أول رحلة سيراً على الأقدام لجلب المواد الخام من أجل انتاج الطعام المستساغ، من هناك بدأ خط التجارة واستمر، انطلاقاً من الطبيعة»[22]

النساء في الصناعة والعلم والطب

غالباً ما يتم وصف أول تقسيم للعمل بين الجنسين بصيغة مبسطة ومغلوطة؛ الرجال كما يقال كانوا الصيادين والمحاربين، بينما بقيت النساء في المخيم أو المسكن لتربية الأطفال وطهي الطعام وكل شيء آخر. أدى انتشار هذا الوصف إلى فكرة أن الأسرة في المجتمع البدائي نظير للأسرة في العصر الحديث، عدا أنها أكثر بدائية. كان الرجال يوفرون فيها كل ضروريات المجتمع، وتتمركز النساء في المطبخ، وحضانة الطفل. وهذا الكلام تشويه صارخ للحقائق.

بصرف النظر عن التمايز في سبل جمع الطعام، لم يكن هناك أيّ تقسيم للعمل بين الجنسين في الأشكال العليا من الانتاج، لسبب بسيط يتمثل في كون مجمل الحياة الصناعية في المجتمع البدائي كانت محصورة بين أيدي النساء، الطبخ على سبيل المثال لم يكن هو الطبخ الذي نعرفه اليوم في المنزل الحديث الفردي، كان الطبخ واحداً فقط من مجموع التقنيات التي اكتسبتها المرأة كنتيجة لاكتشاف النار والسيطرة عليها، وعلى الحرارة الغامضة الناتجة منها.

كل الحيوانات تخاف من النار بطبيعتها وتفر منها، تاريخ اكتشاف النار يعود على الأقل حتى نصف مليون سنة مضت، من قبل أن يصبح البشر، بشراً بالكامل. فيما يخص ذلك، يكتب غوردون تشايلد:

> «كانت النار لغزاً، سيطر عليها البشر ليتحكموا بقوة فيزيائية عظمية، تنتج تغيراً كيمائياً مثيراً للاهتمام. للمرة الأولى في التاريخ يتمكن كائن من كائنات الطبيعة من السيطرة على واحدة من أعظم القوى الطبيعية والتحكم بها، ولا بد أن تنعكس آثار تلك القوة على الكائن المسيطر عليها..... صنع الإنسان ثورة كبيرة في اشعال النار واطفائها ونقلها، لينفصل بذلك عن سلوك باقي الحيوانات. مؤكداً على بشريته التي صنعها بنفسه».[23]

كل تقنيات الطبخ الأساسية والتي تلت اكتشاف النار، مثل الشواء والسلق والتحميص والخبز والتبخير وما شابه، تم تطويرها من قبل النساء، وقد تضمنت هذه التقنيات التجربة المستمرة لخصائص النار، وتوجيه الحرارة، وفي طور عملية التجريب تلك طورت النساء تقنيات حفظ وتخزين الطعام للاستخدام في المستقبل، من خلال استخدام النار والحرارة تمكنت النساء من تجفيف الطعام النباتي والحيواني للاحتياجات المستقبلية.

لكن النار مثلت ما هو أكثر من ذلك، كانت النار سيدة الأدوات في المجتمع البدائي، ويمكن مساواة ذلك مع استخدام الكهرباء، أو حتى الطاقة الذرية والسيطرة عليها في المجتمع الحديث، وكانت النساء المطورات لكل الصناعات المبكرة، وقد تم كشف النقاب عن استخدام النساء للنار كأداة في حرفهن.

تركزت الحياة الصناعية الأولى للنساء حول موارد الطعام، وتحضير الطعام وحفظه وتخزينه، وقد تطلب ذلك ابتكار كل المعدات الجانبية الإضافية، من حافظات وأواني وأفران، وبيوتات الخزن وما إلى ذلك. النساء كن بناة المخازن الأولى، وصوامع الحبوب والمحاصيل. كانت بعض صوامع الحبوب تلك عبارة عن حفر تحت الأرض مغطاة بالقش. أما في الاراضي الرطبة والمستنقعات فقد تم بناء أماكن الخزن على أوتاد فوق الأرض. الحاجة إلى حماية المواد الغذائية في الصوامع من الهوام، أدى إلى استئناس حيوانات أخرى. يكتب ماسون:

> «اختراع صوامع الخزن وحماية الطعام فيها من الهوام كانت على كاهل النساء، وقد تم استئناس القطط لهذا الغرض، فقد روضت النساء القطط البرية لحماية صوامعهن».[24]

فصلت النساء كذلك بين المواد المؤذية والسامة وبين المواد الصالحة للأكل، وغالباً ما تم استخدام الحرارة لتحويل ما هو غير قابل للأكل في حالته الطبيعية إلى مورد جديد من موارد الطعام. اقتبس من ماسون مرة أخرى:

> «كثير من الأراضي تحوي نباتات سامة في حالتها الطبيعية، أو أن طعمها لاذع أو حريف بشكل كبير، اكتشفت النساء في كل هذه الاراضي من تلقاء أنفسهن، أن الغليان أو التسخين يطرد العنصر السام أو غير المستساغ».[25]

نبات المنيهوت (البفرة)[26] على سبيل المثال؛ نبات سام في حالته الطبيعية، لكن النساء حولنه إلى مورد طعام أساسي من خلال عمليات معقدة بطرد السموم عن طريق الضغط في السلال، وإزالة آثاره بالتسخين.

العديدة من النباتات والمواد غير الصالحة للأكل وضعتها النساء قيد الاستخدام في عملياتهن الصناعية، أو تم تحويلها إلى عقاقير. أسهب الدكتور دان مكنزي في وصف المئات من العقاقير

العشبية التي استخدمتها النساء البدائيات بفضل خبرتهن الوثيقة بالحياة النباتية. ولا يزال بعض من تلك العقاقير تستخدم إلى يومنا هذا بلا تغيير. تم تحسين البعض الاخر، ومن بين ذلك استخدامهن للخصائص المخدرة للنبات.[27]

اكتشفت النساء على سبيل المثال خصائص قطران الصنوبر والتربينتين وزيت الشلموغرا، والذي يستخدم حتى اليوم كعلاج للجذام. لقد اخترعن المداوة بالنباتات مثل الاكاسيا (الطلح أو السنط) والكحول واللوز، ونبات الحلتيت والبلسم والتنبول والكافيين والكافور والكراوية والقمعية (قفاز الثعلب) والعلكة، وماء الشعير والخزامى والكتان، والبقدونس والفلفل والرمان والخشخاش، والراوند والسينكا والسكر والشيح[28]، ومئات غيرها. وقد انتشرت هذهِ النباتات واستخداماتها المبكرة من مواطنها الأصلية في أمريكا الجنوبية، وأفريقيا وأمريكا الشمالية، والصين وأوروبا ومصر الخ.

لم يقتصر نشاط النساء على تحويل المواد النباتية فقط، بل تعداه لتحويل المواد الحيوانية إلى مواد علاجية. على سبيل المثال، حضرت النساء مصل الأفاعي لعلاج لدغات الأفاعي بمصول مضادة من سمها (مضادات السموم)، بطريقة لا تختلف كثيراً عن طريقة تصنيعها اليوم.

في الصناعات المرتبطة بموارد الغذاء، تولدت الحاجة لكل أنواع الحاويات والأواني، من أجل حفظ الأغذية أو نقلها والحاجة بالطبع لآنية الطعام والشراب. اعتماداً على البيئة الطبيعية؛ فان هذه الأوعية غالباً ما كنت تُصنع من الخشب، ولحاء الأشجار وطيات الألياف وجلود الحيوانات، وما شاكل. وفي نهاية المطاف ابتكرت النساء الأواني من الطين.

كانت النار قد استخدمت كأداة لصنع الأوعية الخشبية؛ أعطى ماسون وصفاً لهذه التقنية، ومن السهل أن نفهم كيف امتدت تلك التقنيات لصناعة أولى القوارب وباقي عدة الإبحار:

> «قامت المرأة بحرق الجزء المجوف من القدر بالنار بعناية وحذر. هذهِ الحرفة الهائلة تحتاج لمهارات كثيرة. يتم ابعاد النار، وكنس البقايا بمكنسة من العشب. ثم تبدأ عملية كشط وتنظيف بأداة مصنوعة من حجر الصوان تصنعها المرأة بنفسها، تزيل بها كل الفحم حتى يصبح سطح الخشب نظيفاً، تتم تكرار عملية التشويح بالنار والكشط عدة مرات، إلى أن يتم الوصول للنتيجة المرجوة. هكذا يكتمل الوعاء ويصير جاهزاً لاستخدامات العائلة في أسرع وقت، بمجرد تقطيع اللحم وتسخين الحجارة».[29]

في هذا تحوير ملفت للنظر لمادة من الخشب، والتي تحترق في العادة بالنار، فتصير بعد ذلك وعاءً لطهو الطعام على النار.

صناعات النساء والتي نشأت في خضم النضال للسيطرة على موارد الطعام، سرعان ما تجاوزتها إلى ما هو أبعد من ذلك، كلما تمت تلبية حاجة معينة، نشأت حاجات أكثر، وهذه بدورها كان يتم تلبيتها في دوامة متزايدة من الحاجات والمنتجات الجديدة. وكانت المرأة في تلك العملية من إنتاج وتلبية الحاجات قد وضعت حجر الأساس لثقافة أكبر قادمة.

نشأ العلم جنباً إلى جنب مع الصناعات النسائية. أشار غوردن تشايلد إلى أن تحويل الطحين إلى خبز يحتاج إلى سلسلة كاملة من الاختراعات الجانبية، ويتطلب كذلك معرفة بالكيمياء، واستخدام الكائنات الدقيقة (الخميرة). نفس تلك المعرفة بالكيمياء الحيوية والتي انتجت الخبز، انتجت تخمير المشروبات للمرة الأولى. كما صرح غوردن لا بد أن يتم الاعتراف بفضل النساء على علم الكيمياء بصناعتهن للقدور، وعلى الفيزياء بصناعة المغازل وميكانيكا النول، وعلى علم النبات بزراعتهن الكتان والقطن.

من الحبال إلى المنسوجات

قد تبدو صناعة الحبال، صناعة متواضعة للغاية، لكن حياكة الحبال كانت ببساطة المستهل لسلسلة كاملة من الصناعات، والتي بلغت ذروتها في صناعات النسيج الكبرى. صناعة الحبال لا تحتاج للمهارات اليدوية وحدها، بل تتطلب المعرفة بحسن اختيار المواد، وطرق المعالجة والتطويع للمواد المستخدمة. يكتب شابي وكون:

كل الشعوب المعروفة تستخدم الحبال وتستفيد منها، سواء للإمساك بالأشياء، أو صناعة فخاخ الأرانب أو الحقائب أو تعليق الحليّ على الجيد. الجلد من المواد المستخدمة في صناعة الحبال، ويشيع استخدامه بين الأسكيمو، وتكون تلك الحبال غالبا عبارة عن سيور عريضة من جلود الحيوانات وأوتارها. سكان الغابات في العادة لا يستخدمون الجلد كثيراً، ويعمدون الى استخدام ألياف نباتية مثل الروطان والكركديه، وألياف وجذور شجرة التنوب وتلك ألياف لا تحتاج إلى الكثير

من التطويع قبل استخدامها. أما الألياف القصيرة فقد كان لا بد من ربطها ببعضها البعض لتصير حبلاً طويلاً واحداً.[30]

ومن تقنية النسيج نشأت صناعة السلال، وبحسب المكان، كانت تلك السلال تُصنع من اللحاء والأعشاب والليف والجلود والجذور. يُصنع بعضها بالنسج وبعضها بالخياطة، كان التنوع في السلال وغيرها من صناعات النسيج تنوعاً هائلاً. أدرج روبرت لوي قائمة من تلك التنويعات كتالي: سلال الحمل، قناني المياه، أوعية مسطحة، وصواني، وأطباق التحميص، والدروع (في الكونغو) القبعات والأسرة ومهود الأطفال (في كاليفورنيا) المراوح، وحقائب الظهر، والحصير، الحقائب الجانبية، الصناديق، سلال حمل السمك، الخ.. بعض هذه السلال تمت حياكتها بمتانة حتى صارت مقاومة للماء، وتستخدم للطهي والتخزين.[31]

بعضها، كما يكتب بريفولت كانت غاية في الدقة، يستحيل تكرار صناعتها بالآلات الحديثة:

«نسج لحاء الأشجار والأعشاب من قبل النساء البدائيات غالباً ما كان رائعاً، متقن بطريقة لا يمكن محاكتها من قبل إنسان اليوم، حتى مع وجود المكائن. اليوم يمكن اتلاف ما يدعى بقبعات بنما، بخرقها بأصبع واحد كما نعرف».[32]

في هذهِ الصناعة استخدمت النساء كل الموارد التي أتاحتها لها الطبيعة؛ في المناطق التي وجد فيها جوز الهند، تم رصد حبال ضخمة صنعت من قشرته. في الفليبين أنواع من الموز غير صالحة للأكل استخدمت في قنب مانيلا الشهير.[33]

في بولينيزيا كان يتم استزراع شجرة ورق التوت من أجل لحائها، تسحق النساء اللحاء لصناعة الملابس، ومنها القمصان الرجالية والنسائية والحقائب والأحزمة وما شاكل.

نشأت صناعة النسيج مع الثورة الزراعية الكبرى، في هذهِ الصناعة المعقدة تم المزج بين التقنيات التي تعلمتها النساء عبر الزراعة والصناعة. وكما يقول غوردن:

> «لا تحتاج صناعة النسيج إلى معرفة بالمكونات الخاصة مثل خيوط الكتان والقطن والصوف فحسب، لكنها تحتاج كذلك إلى تربية حيوانات خاصة، واستنبات نباتات بعينها».[34]

علاوة على ذلك؛ صناعة النسيج تتطلب درجة كبيرة من المهارات التقنية والمكننة، وسلسلة كاملة من الابتكارات العرضية لكي تتطور مثل هذهِ الصناعة، يتابع تشايلد القول:

«...اكتشافات وابتكارات معقدة أخرى مطلوبة، تحتاج لمعرفة علمية أقوى ليتم تطبيقها، من بين الابتكارات المطلوبة مسبقا ابتكار جهاز للغزل، من المهم ومن الضروري اختراع نول النسيج».

«أما النول فهو قطعة ميسرة عظيمة، أعقد بكثير من ان يتم وصفها هنا، واستخدامه ليس أقل تعقيداً. ابتكار نول النسيج كان واحداً من الانجازات العظيمة في تاريخ المعرفة البشرية. تلك الاختراعات لا تحمل أسماء مخترعيها، لكن مما لا شك فيه أنها كانت مساهمة ضرورية في تخزين رأس مال المعرفة البشرية».[35]

بعيدا عن قيمة الصيد في توفير مورد الطعام، إلا أن تطوير الصيد المنظم، كان عاملاً بالغ الأهمية لتدريب الرجال على التعاون فيما بينهم، وهي صفة غير معهودة في العالم الحيواني، حيث الصراع التنافسي على الموارد هو القاعدة. يصرح شابل وكون عن هذه النقطة:

«الصيد تمرين دقيق للبدن والدماغ، انه يستحث وربما «يختار» صفات ضبط النفس، والتعاون ويخفف من الغضب العدائي، ويعزز التفكير والابتكار، ودرجة عالية من البراعة اليدوية، لم يكن بوسع النوع البشري أن يمر بمدرسة أفضل من مدرسة الصيد خلال فترة تكوينه».[36]

الصناعات الجلدية

على أيّ حال، وبسبب كون الصيد عملاً رجوليا، مال المؤرخون لتمجيده بشكل أبعد من حدوده الخاصة. لا شك بالطبع في كون الرجال قد ساهموا عبر صيدهم بتوفير موارد الطعام، لكن أيدي النساء هي التي حضرت وحفظت الطعام وجهزت المنتجات الثانوية للحيوانات في صناعتها. كانت النساء هن اللواتي طورن تقنيات دباغة الجلود وحفظها، وهن اللواتي اكتشفن امكانية ادخال الجلد في صناعاتهن.

صناعة الجلد عملية طويلة صعبة ومعقدة. يصف لوي أبكر أشكال هذا النوع من العمل كما لا يزال معمولا به من قبل نساء قبيلة الأونا في أرخبيل النار[37]. عندما يعود الصيادون بجلد الغوناق[38] فإن النساء كما يُخبرنا:

«... ينحنين على الجلد المتخشب، ويكشطن ببراعة الأنسجة الدهنية، والطبقات الشفافة تحتها بواسطة شفرة من الكوارتز، بعد فترة تقوم المرأة بعجن الجلد بقبضتيها، تمرر قبضتها القوية على سطحه مراراً وتكراراً، حتى أنها قد تستخدم أسنانها في ترقيقه، غالبا ما يتم استخدام الشفرة ذاتها في إزالة الشعر عن الجلد».[39]

الشفرة التي يتحدث عنها لوي وعصا الحفر كلاهما من أقدم الأدوات التي عرفتها الإنسانية، إلى جانب عصا الحفر التي كانت تستخدم في جمع الخضار، وفي الزراعة لاحقا تطورت الشفرة المستخدمة للكشط من الحجارة، وهي الكاشطة أو الفأس الأولى، ليستخدم في الصناعات. يكتب بريفولت عن هذا الموضوع:

«الكاشطات والتي تشكل حصة كبيرة للغاية من مجمل أدوات ما قبل التاريخ، كانت تستخدم وتُصنع من قبل النساء... دار الكثير من الجدل حول الاستخدامات الممكنة لهذه الكاشطات، ولا يزال ذلك الجدل مستمراً، مع التغاضي عن حقيقة أن نساء الإسكيمو لازلن حتى وقتنا الراهن يستخدمن أدوات مماثلة، والتي خلفت أخواتهن الأوربيات أثاراً غزيرة منها في البقايا الحجرية للعصور الجليدية.

غالباً ما تكون الكاشطات والسكاكين التي تستخدمها نساء الإسكيمو متقنة للغاية، بل مزخرفة بشكل فنيّ راقٍ عند مقابضها المصنوعة من العظم. دولة أفريقيا الجنوبية تغص بالكاشطات المماثلة لتلك الموجودة في أوربا العصر الحجري، وبشهادة الأشخاص الذين رافقوا قبيلة البوشمن عن قرب، فإن هذه الأدوات كانت تصنعها النساء».[40]

يؤيد ماسون ذلك:

«الكاشطات أقدم الأدوات الحرفية في العالم، ولا تزال المرأة من الهنود الحمر في مونتانا تتعلم حرفة صناعتها من والدتها، وتمررها بدورها إلى بناتها، في حلقة توريث لم تكسر منذ ولادة النوع البشري».[41]

الدباغة

لكن صناعة الجلد، مثلها مثل أيّ حرفة تحتاج إلى ما هو أكثر من العمل اليدوي، لقد تعلمت المرأة أسرار الكيمياء من خلال هذهِ الصنعة، فعبر عملها في الدباغة تعلمت كيفية استخدام مادة لإحداث تحول في مادة أخرى.

دباغة الجلود هي في أساسها عملية تغيير كيميائي لجلود الفرائس. يكتب لوي أن هذا التغيير الكيميائي يستحثه الأسكيمو بنقع الجلود في حوض من البول. أما في أمريكا الشمالية فتستخدم النساء الهنديات خلطة خاصة من أدمغة الحيوانات، يتم نقع الجلود فيها للحصول على التغيير الكيميائي المنشود. الدباغة الفعلية على أيّ حال تحتاج للحاء البلوط، أو بعض المواد الخضرية الأخرى الحاوية على حمض التانيك الضروري لحدوث العملية. كجزء من عملية دبغ الجلد تقوم النساء بتمرير الجلود على نار تم إخمادها، لغرض تدخينها. كانت دروع هنود أمريكا الشمالية قوية للغاية؛ لدرجة أنها لم تكن مضادة للسهام فحسب، بل كانت في بعض الأحيان قوية بما فيه الكفاية لصد الرصاص.

منتجات الجلد تتنوع بشكل كبير مثلها مثل صناعة السلال، يدرج لوي بعض استخدامات الجلود: القبائل الآسيوية البدوية استخدمته كقرب لحفظ الماء، وفي شرق أفريقيا استخدم في الدروع والملابس، وفي أمريكيا الشمالية صنعت منه الحبال والقمصان والحقائب والخف الجلدي، كما استخدموا الجلود في صناعة خيمهم بالإضافة إلى المنامات والدروع. تحفظ الملابس والمتفرقات في جراب من جلد الغزال، بينما يتم حفظ اللحم في حقائب من الجلد الخام غير المدبوغ. الصناعات الجلدية المتقنة للنساء الهنديات الأمريكيات لم تنفك تثير اعجاب زوار المتاحف، أينما عرضت.

يشير بريفولت إلى أن المرأة كان يجب أن تكون لها معرفة عملية بطبيعة جلد حيوان ما، حتى تقرر على أثر ذلك نوع المنتج الذي يناسبه.

> «تتنوع التقنيات حسب نوع الجلد، واستخداماته؛ الجلود المرنة يتم ترقيقها لتصير طبقة موحدة السمك، والاحتفاظ بطبقة الجلد التي لا يزال الشعر متصلاً بها. الجلود الصلبة استُخدمت في صناعة الخيم والدروع والقوارب والأحذية. أما الجلود

الناعمة الخفيفة القابلة للغسل فهي خاصة بصنع الملابس. كل واحدة من هذهِ الجلود تتطلب عمليات تقنية خاصة تقوم بها النساء البدائيات.[42]

يكتب ماسون:

«في القارة الأمريكية وحدها، عرفت النساء أثواب الجلد، فقد عرفن كيفية معاملة جلود القطط والذئاب والثعالب وكل أنواع الضربان والدببة والراكون والفقمة وفرس البحر، والبقر البري وثور المسك والماعز والخراف، والظباء والموظ والغزلان والأيائل والقندس، والأرانب البرية والأبسوم وفأر المسك والتماسيح والسلاحف والطيور، وعدد لا يحصى من الأسماك والزواحف».

«كل ما له جلد سواء أكان طائرا في السماء، أو في حجر داخل الأرض، أوجدت له النساء الوحشيات أسماً، ونجحن في تحويله للاستخدام البدائي لملابس الإنسان، لقد اخترعن استخدامات جديدة للجلود، لم يكن ليحلم بها مالكها الأصلي».[43]

صناعة القدور والفن

صناعة القدور مثلها مثل العديد من الصناعات الأخرى التي برعت بها النساء تتضمن انتاج مواد جديدة بالكامل، مواد لم توجد من قبل في الطبيعة. يكتب غوردن تشايلد عن هذهِ النقطة:

«ربما تكون صناعة القدور أقدم استخدام واعٍ من قبل الإنسان للتغير الكيميائي لخصائص المادة.. أساس حرفة الخزافة تكمن في قدرة المرأة على قولبة قطعة من الطين إلى أيّ شكل ترغب به، ومن ثم يتم تثبيت هذهِ الهيئة بشكل دائم باستخدام النار. (التسخين إلى ما يتجاوز 600 درجة) بالنسبة للرجل البدائي فإن هذا التغيير في نوعية المواد يجب أن يبدو نوعاً من التحول السحري. تحويل الطين أو الغبار إلى حجارة..»

«اكتشاف الخزف نشأ بالأساس بعد تعلم كيفية السيطرة على التغير الكيميائي واستخدامه كما ذكرنا للتو. لكن مثله مثل كل الاكتشافات الأخرى؛ فإنه تطبيقاته العملية تضمنت اكتشافات أخرى بلا شك. حتى تكون قادراً على تطويع قالب الطين بين يديك،

يجب أن تحرص على ترطيبه. إذا ما وضعت وعائك المرن مباشرة في النار فسوف يتحطم. يستخدم الماء لزيادة مرونة الطين، ومن الضروري أن تحدث عملية التجفيف بلطف تحت الشمس أو قرب النار، قبل أن يكون ممكناً تجفيف الوعاء في الفرن. يجب ان يتم اختيار الطين وتحضيره بعناية، يشمل ذلك غسيل الطين عدة مرات للتخلص من الشوائب والمواد الخشنة».

«في عملية التسخين لا تتغير البنية الفيزيائية للطين فحسب، بل يتغير لونه كذلك، وقد كان على الإنسان تعلم السيطرة على تغييرات كتلك، واستخدامها في تعزيز جمالية الأواني».

«لذا فإن حرفة الخزف حتى في أبسط أشكالها وأكثر سذاجة، كانت عملية معقدة بالفعل. إذ تنطوي على عدد من العمليات المختلفة، واستخدام كوكبة كاملة من الاختراعات.. صناعة الوعاء طفرة متقدمة في إبداع الإنسان».[44]

في الواقع، كانت المرأة البدائية هي الخزاف الأول، فقد أخذت غبار الأرض وأعادت تشكيله، لتنتج عالماً جديداً من الصناعات الطينية.

فن الزخرفة تطور جنباً إلى جنب مع كل تلك الصناعات على أيدي النساء، فقد نشأ الفن خلال العمل. وكما يكتب لوي:

«صانع السلال سرعان ما يصبح من غير قصد مزيناً، وما إن تنظر العين إلى تلك القوالب، حتى يبدأ المرء بتكرارها عمداً. عند حياكة السلة، وعند نسج الخيوط، ويتعداه الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك، ما إن يتم استيعاب هذهِ الأشكال الهندسية كزخرفة للتزيين، فإنها لا تعود حكراً على الحرفة التي نشأت فيها، فقد يرسم الخزاف زخرفة ما على مزهرية له، ويحاكيها النحات بتكرارها على قدحه الخشبي».[45]

المنتجات الجلدية التي ابدعتها المرأة مثيرة للاهتمام؛ ليس فقط لكفاءتها لكن كذلك لجمال زخرفتها. عندما وصلت المرأة إلى مرحلة صناعة الملابس، قامت بنسج التصاميم الدقيقة على الملابس. وابتكرت الأصباغ، وتقنيات تلوين الملابس.

الهندسة والبناء

ربما يكون أقل نشاط معروف عن النساء البدائيات هو عملهن في البناء والهندسة والتصميم. يكتب بريفولت:

> «لسنا معتادين على التفكير بأن فن البناء والهندسة، مثله مثل صناعة الأحذية أو الأواني الفخارية؛ مهنة نسائية. مع ذلك فإن الأكواخ الأسترالية، وأكواخ جزر الأندمان[46]، وجزر باتوغنيا، وجزر البوتكودو والملاجئ الخشنة لدى شعب السيري، وأكواخ الجلد، والأكواخ المستديرة للهنود الامريكيين، والخيام المصنوعة من شعر الجمل الأسود لدى البدو الرحل في آسيا الوسطى. كل تلك الأعمال هي أعمال تختص بها النساء وتقتصر عليها».

«أحياناً تكون تلك المساكن قابل للنقل. «اليورت» على سبيل المثال عبارة عن بيوت تقليدية كبيرة لدى قبائل التركمان، تبنى على شبكة من الأعمدة، مرتبطة بهيئة حلقة وتتم زيادة متانتها عن طريق الأخشاب والعرائش، يُغطى البيت بالكامل بلباد خشن، ليشكل قبة في قمته. والبيت مقسم من الداخل إلى عدة مقصورات، فيما عدا الخشب تصنع نساء التركمان كل أجزاء البيت، وتعكف النساء على تصميم البيت وتجميع أجزاءه بنفسها»

«مجمعات البيبلو للسكان الأصليين من نيو مكسيكو وأريزونا تمثل مشهداً خلاباً على امتداد الأفق لبناء نفيس يضم الكثير من البيوت بشكل طوابق، ترتفع الطوابق بشكل مدرج حتى تصل لسقف مسطح واحد، حول ساحة مشتركة. يتم الوصول إلى الطبقات العليا بواسطة الأدراج، أو عبر سلالم خارجية، والجدران مزخرفة وتحوي على فتحات للدفاع عند المعارك.. ساحات، وشوارع ومبانٍ عامة مثيرة للفضول، تستخدم كنواد ومعابد... كما تشهد بقاياها التي لا تُعد ولا تُحصى».[47]

القساوسة الاسبان الذين استقروا بين الهنود البيبلو كانوا منذهلين بجمال الكنائس والاديرة التي بنتها هؤلاء النسوة لهم. لقد كتبوا إلى رجال بلدهم الاوربيين:

«لم يسبق لرجل قط أن رفع عماد منزل... هذه البنايات نشأت على أيدي النساء فقط، وعلى أيدي البنات وبعض الشباب في بعثتنا التبشيرية، العادة بين هؤلاء الناس أن المرأة هي التي تبني المنزل».

تحت تأثير البعثات التبشيرية بدأ الرجال بالمشاركة بهذا العمل، لكن جهودهم الأولى واجهها القوم بسخرية صاخبة. كما يكتب أحد القساوسة الاسبان:

«تمت إحاطة البائس المسكين المحرج بحشد متهكم من النساء والأطفال، سخروا منه وهزئوا بهِ، ظنوا أن أكثر الأشياء سخافة أن يشترك رجل في بناء منزل».[48]

أما اليوم فيضحك الناس على العكس من ذلك! يضحكون على فكرة أن تنخرط النساء في الهندسة والتجارة.

على كاهل النساء

النساء لسن العاملات الماهرات في المجتمع البدائي فحسب، بل أن مهمة نقل البضائع والأدوات كانت تقع على كاهل المرأة. قبل أن يتم تدجين الحيوانات، ليزاح العبء عن النساء، كان ظهر المرأة هو وسيلة النقل البدائية. ولم تكن تنقل المواد الخام المستخدمة في الصناعة فقط، بل تحمل المرأة البدائية بيتها كله على ظهرها بما فيه من مكان إلى آخر.

في كل هجرة -وكانت الهجرة تتكرر كثيراً قبل تطور الحياة القروية المستقرة- كانت النساء ينقلن الخيم والأكواخ أو الأكشاك ويقمن بإعادة نصبها من جديد. تنقل النساء الأحمال والأطفال من مستوطنة إلى أخرى. وفي الحياة اليومية كانت المرأة تحمل كل حمل ثقيل من حطب وماء وغذاء وغيرها من الضروريات.

حتى اليوم تقوم النساء في قبائل الأونا في أرخبيل أرض النار مثلما أشار شابل وكون بحمل الأثقال التي قد تصل إلى ما يتجاوز 100 باوند عندما يتم تغيير مكان المخيم.

يكتب روتليدجز عن قبائل الأكيكيوس في شرق أفريقيا كيف أن الرجال كانوا غير قادرين على حمل اثقال تزيد على 40 أو 60 باوند، بنما حملت النساء 100 باوند أو أكثر:

«عندما صرح الرجل هذا حمل ثقيل للغاية لا يناسب رجلاً بل امرأة، فقد كان يصرح بالحقيقة».[49]

بخصوص هذا الجانب من عمل النساء يكتب ماسون:

«النقل أعظم الفنون كلها، من على ظهر النساء إلى السيارات والسفن الفخمة، دفع بجنسنا البشري للاستكشاف والانتشار على كلّ بقاع الأرض... لا أستغرب أبداً عندما أرى صانع السفينة ينحت رأس امرأة على مقدمة المركب، ويؤنث أداة نقله، ويشير إليها كأنثى».[50]

هل تشير كل نشاطات العمل المركزة تلك إلى كون النساء كن مضطهدات، وقد تم استغلالهن وحبسهن وفقاً لمنظورنا الفكري الحديث؟ على العكس تماماً. يكتب بريفولت في هذا الصدد:

«الاعتقاد بأن النساء كن مضطهدات في المجتمعات الوحشية، لا صحة له، ومرده إلى اختيال الرجل المتحضر، وفخره بنفسه من جهة، ومن جهة أخرى إلى حقيقة أن رؤية الرجل الغربي لامرأة قادرة على القيام بأعمال شاقة، كانت مفاجأة صادمة، أينما انخرطت المرأة بعمل صعب تم الحكم على وضعها باعتبارها خادمة ومضطهدة. ما من سوء فهم أكبر من ذلك...

«المرأة البدائية مستقلة عن الرجل. وبصفة عامة ففي هذهِ المجتمعات التي تقوم المرأة فيها بمعظم العمل، يكون للنساء بالعموم مكانة مستقلة، وتأثير عظيم؛ بينما في المجتمعات التي تبالغ في تدليل المرأة، وتجعل العمل من نصيب العبيد، كقاعدة عامة، لا يعلو شأن النساء فيها إلا قليلاً عن كونهن إماء مستعبدة لأجل الجنس..

«ما من عمل من أيّ نوع في المجتمع البدائي إلا وهو عمل طوعي، وما من عبء تحمله المرأة وتكدح فيه طاعة لأوامر تعسفية..

«بالإشارة إلى نساء الزولو يكتب أحد أعضاء البعثة التبشيرية: أي شخص يلاحظ المظهر السعيد للنساء في أثناء العمل والكدح، ولا بد أن يلاحظ الضحك والقهقهة والثرثرة والضحك والأغاني وسماحة الطبع، وسيقارنها على الفور بتجهم نسائنا العاملات».[51]

ما تقوم به النساء اليوم ليس ذات العمل الطوعي، بل هو استغلال واضطهاد، وإهانة للكائن البشري.

عندما بدأت النساء أعمالهن، لم يكن لديهن معلم. تعلمت المرأة كل شيء بالطريقة الصعبة عبر الشجاعة والجهد الدؤوب، وتلقت أولى الإشارات من الطبيعة نفسها. يكتب ماسون:

«لقد تتبعت المرأة خطى العناكب في بناء العش، وقامت بتخزين الطعام والعمل في الطين مثل دبور الطين والنمل الأبيض. ذلك لا يعني أن هذهِ المخلوقات كانت مدرسة تتعلم فيها المرأة البليدة الذهن؛ بل أن العقول اللماحة التي كانت متيقظة تنبهت للمصادر.. أنها آلهة التصنيع التي قدر للمرأة أن تلعب دورها بمثابرة ونجاح. في بداية الزمن رسمت المرأة خطوط البشرية عن طريق واجباتها التي استمرت بأدائها بلا كلل».[52]

الجامعات الأوائل

لكن لكون النساء بدأن عملهن بأسلوب غاية في التواضع، يقدم العديد من المؤرخين الصناعات النسائية على اعتبارها مجرد «حرف منزلية» أو «حرف يدوية». متجاهلين حقيقة أن ما صنعنه كان قبل تطور الآلات، ولم يكن هناك نوع آخر من الحرف سوى الحرف اليدوية. قبل تطور المصانع المتخصصة في المدن والقرى لم يكن هناك مصنع، بل «منزل». بدون تلك المنازل، وبدون حرفهن اليدوية فإن المباني العظيمة للعصور الوسطى لم يكن ممكناً أن توجد. وليس ممكناً في واقع الأمر حتى ابتكار المزارع الآلية، والصناعات البخارية.

عندما بدأت النساء أعمالهن قمن بسحب الجنس البشري خارج المملكة الحيوانية. بدأت المرأة العمل وأنشأت بذرة الصناعات الأولية، تلك التي رفعت الإنسانية لترتقي بعيداً عن القردة، وبفضل عملهن جنباً إلى جنب نشأت اللغة. كما أشار أنجلز:

> «تطور العمل ساهم بالضرورة في تقريب أفراد المجتمع، حدث التقارب بزيادة حالات تبادل الدعم والأنشطة التعاونية... العمل أصل اللغة، هذهِ هي الحقيقة الوحيدة.. أولاً جاء العمل، وبعد ذلك ومن جنبا إلى جنب معه تشكل الكلام».[53]

بينما طور الرجال بلا شك بعض الكلام في التواصل خلال العمل المنظم، فإن التطور الحرج للغة نشأ من أنشطة الانتاج التي قامت بها النساء. كما يكتب ماسون:

«لأن النساء لديهن كوكبة من الفنون الصناعية، تشغل بالهن طوال اليوم وفي كل يوم، كان من المحتم ابتكار لغة ثابتة ليستخدمنها. بالمثل يقول دكتور برينتون في رسالة خاصة أنه قد وجد في معظم اللغات البدائية سلسلة من التعبيرات الخاصة بالنساء، ليس هذا وحسب بل وفي أماكن متنوعة تم العثور على لغات تعود للنساء، منفصلة تماماً عن اللغة التي يستخدمها الرجال».

«الرجال الوحشيون بقوا منعزلين في قنصهم للفرائس، وصيد الأسماك. وكان يتوجب عليهم التزام الصمت أثناء الصيد، ومن هنا كانت مساهماتهم اللغوية شحيحة، بينما بقت النساء سوية، وكن يثرثرن مع بعضهن طوال الوقت. في المناطق البعيدة عن مراكز الحضارة، لا تزال النساء يمثلن أفضل القواميس، وأفضل المتحدثات وكاتبات الرسائل».[54]

مثل العمل والكلام أولاً، وقبل كل شيء آخر؛ ولادة للتعاون البشري. الحيوانات مجبرة بقانون الطبيعة على البقاء في تنافسية فردية مع بعضها البعض، لكن النساء أبرزت من خلال العمل مع بعضهن البعض علاقات إنسانية من نوع جديد، تتسم بروح التعاون.

المنزل الجماعي- المجتمع

كانت الأسرة البدائية «المنزل الجماعي» تشمل كل المجتمع، بدلاً عن النزعة الفردية، كانت الروح التعاونية أساس الوجود. بخصوص ذلك يكتب غوردن تشايلد:

«تُعرض حرف العصر الحجري كما لو كانت صناعات منزلية، بينما الحقيقة هي أن تلك الحرف لم تكن عملاً فردياً، بل أعمال جماعية. تتراكم الخبرة والحكمة باستمرار لدى أفراد المجتمع جميعهم... ويتلقاها الطفل من الكبار بالمحاكاة، وعبر مبدأ المشاركة. ساعدت البنت أمها في صناعة الأواني، وراقبتها عن كثب، ونسجت على

مثالها، وتلقت من الأم تعليمات شفوية وتحذيرات ونصائح. العلوم التطبيقية في العصور الحجرية كانت تنقل إلى الأجيال التالية عن طريق ما نسميه اليوم (التلمذة الصناعية)...

«في القرى الأفريقية الحديثة لا تتقاعد ربة البيت في عزلة عن صناعة أطباقها. كل النساء في القرية يعملن سوية، يثرثرن ويتبادلن الملاحظات؛ حتى أنهن يساعدن بعضهن البعض. العمل عام، وقواعده هي نتيجة للخبرات المجتمعية.. اقتصاد العصر الحجري بمجمله لم يوجد بدون جهد تعاوني.[55]

وهكذا كان تتويج عمل النساء يتمثل في بناء وتوطيد أواصر أول تعاونية بشرية عظيمة، وفي استبدال الفردانية الحيوانية بالحياة التعاونية والعمل، وبذلك فقد قامت المرأة بحفر هوة شاسعة لا يمكن تجسيرها بين المجتمع الانساني والمملكة الحيوانية، لقد فازت بأول غزوات النوع البشري – وذلك بإضفاء الطابع الإنساني ليغطي الغريزة الحيوانية ويطغى عليها، بعد تأسيس المجتمع.

في خضم ذلك العمل العظيم؛ أصبحت المرأة أول العمال والمزارعين، وأول العلماء الأطباء، وأول المهندسين، وأول المعلمين والمتعلمين، وأول الممرضين وأول الفنانين والمؤرخين، رسولات للتراث الاجتماعي والثقافي. المنازل الجماعية التي تمكنت المرأة من إدارتها لم تكن ببساطة مطبخ جماعي، وغرفة للخياطة، لقد كانت كذلك أولى المصانع وأولى المختبرات العلمية، والمراكز الطبية والمدارس والمراكز الاجتماعية. قوة وهيبة النساء التي نشأت أول الأم من غريزتها كأم، بلغت ذروتها في سجل الإنجازات الاجتماعية المذهلة.

تحرير الرجال

لطالما كان الصيد عملاً شاغلاً للرجل كل الوقت، وقد تسببت الحاجة إليه بإبقاء الرجال بعيدين. أقصت رحلات الصيد الرجال لفترات طويلة من الزمن بعيداً عن المراكز المجتمعية، وحرمتهم من المشاركة بأشكال أعلى من العمل.

اكتشاف الزراعة من قبل النساء وتدجين الماشية والحيوانات الضخمة الأخرى تسبب بعتق الرجال من مهمة الصيد. تم اختزال الصيد ليكون مجرد رياضة، صار الرجال أحراراً من عبء هذا العمل، ليتمكنوا من التعلم والتدرب على الحياة الثقافية والصناعية في المجتمعات. بسبب زيادة

الموارد الغذائية ونمو المجتمعات، تحولت مواقع المخيمات القبائلية إلى مراكز قروية مستقرة، وتطورت لتصير مدناً.

من الطبيعي أنه في الفترة الأولى من تحرير الرجال كان عملهم مقارنة بعمل النساء مفتقراً للمهارة. أقتصر عملهم أول الأمر على تمهيد الأرض وتسويتها وتجهيرها للزراعة من قبل النساء. قاموا بقطع الأشجار، وجهزوا مستلزمات البناء فقط، ثم بعد ذلك صار عمل البناء على عاتقهم، كما تكفلوا برعاية وتربية المواشي.

لكن على عكس النساء لم يبدأ الرجال من الصفر. لذا لم يمر وقت طويل قبل أن يتعلموا الحرف بمهارة، بل صاروا يعدلون ويدخلون تحسينات على الأدوات والمعدات والتكنلوجيا. هكذا شرعوا بإنشاء سلسلة كاملة من الابتكارات والاختراعات، ساهمت بتقدم الزراعة لخطوات كبيرة إلى الأمام مع اختراع المحراث، واستخدام الحيوانات الداجنة في الزراعة.

تاريخياً وبعد تحرر الرجال من الصيد ببعض الوقت صار تقسيم العمل بين الجنسين حقيقة. بالعمل سوياً صار لدى الرجال والنساء وفرة من الطعام والمنتجات، ليتم إنشاء أولى القرى المستقرة.

لكن الثورة الزراعية التي أحدثتها النساء، مثلت الخط الفاصل بين عصري جمع القوت، وعصر إنتاجه، وعلى نفس المنوال، تمثل الثورة الزراعية الخط الفاصل بين الوحشية وبين التحضر. هذهِ الثورة أسست لنوع جديد من النظام الاجتماعي، تسبب في عكس أدوار القيادة الاقتصادية والاجتماعية للجنسين.

الظروف الجديدة والمتمثلة بوفرة الطعام وتزايد السكان انتجت قوة إنتاجية جديدة، وعلاقات انتاجية جديدة كذلك. التقسيم القديم للعمل بين الجنسين تم هجره لصالح سلسلة جديدة كاملة من التقسيمات الاجتماعية للعمل. صار العمل الزراعي منفصلاً عن العمل الصناعي الحضري، والعمل المهاري منفصلا عن باقي أنواع العمل غير المهاري. واستولى الرجل بالتدريج على الوظائف التي شغلتها المرأة من قبل.

على سبيل المثال، صار الرجال مع ابتكارهم لعجلة الخزف هم المختصون بصناعة الأواني التي كانت تصنعها النساء من قبل، وكما يكتب تشايلد:

«تُظهر الصور الأثنية أن صناعة الخزف بالعجلة كان في الغالب عملاً من اختصاص الرجال لا النساء، رغم أن تلك الأواني تستخدم في مهام منزلية فحسب كالطبخ والغزل، هو أمر يخص المرأة».[56]

استولى الرجل على الفرن وعلى القمين[57] –الذي اخترعته النساء- واستخدمها في صهر المعادن وصقلها، حيث بدأ تحويل المعادن الأرضية مثل النحاس والذهب والحديد. العصر المعدني كان فجر بروز الرجل. والاسم الشائع للغاية حتى اليوم «السيد سميث»[58] نشأ في ذلك الوقت.

ذات الظروف التي أدت لتحرير الرجال تسببت بإنهاء العصر الأمومي، والبدء باستعباد النساء. صار الإنتاج الاجتماعي إلى أيدي الرجال وصارت النساء مستبعدات من الحياة الإنتاجية، وتم تقييدهن بوظائفهن البيولوجية في الإنجاب والأمومة فقط. وهكذا استولى الرجال على مقاليد المجتمع، وأحدثوا نظاماً اجتماعياً جديداً خدمة لمصالح وحاجاتهم. وعلى أنقاض المجتمع الأمومي ولد المجتمع الطبقي.

من سجل عمل النساء في المجتمعات المبكرة؛ يمكننا أن نرى كيف لعب كلا الجنسين دوراً مهماً في بناء المجتمع والنهوض بالإنسانية حتى هذهِ النقطة. لكنهم لم يلعبوا دورهم بتلقائية، أو بشكل أحادي، لقد كانت هناك بالفعل فترات تطور غير متكافئة. وهذا بدوره علامة على عدم تكافؤ التطور في المجتمع ككل.

خلال العصر الكبير الأول من عصور التطور الاجتماعي، سحبت النساء العرق الإنساني بعيداً عن المملكة الحيوانية. وبما أن الخطوات الأولى هي الأصعب، لذا لا يمكننا النظر إلى جهود النساء ومساهمتهن الاجتماعية إلا باعتبارها نصراً حاسماً. إنجازات المرأة في مجال الإنتاج والحياة الثقافية والمعرفية هي التي جعلت الحضارة أمراً ممكناً. لقد استغرق الأمر عمل النساء لمئات آلاف من السنوات من أجل إرساء هذه الأسس الاجتماعية، ولأن النساء بالذات وضعن تلك الأسس بحزم شديد، لم تمر إلا أربعة آلاف سنة قبل أن تنشأ الحضارة الحديثة.

لذلك فمن غير العلمي مناقشة تفوق الرجال أو النساء خارج أطار العملية التاريخية الفعلية. في مسار التاريخ حدثت تبدلات عظيمة في أدوار التفوق الاجتماعي بين الجنسين. في البدء كان التفوق للنساء والذي كان منحة من طبيعتهن البيولوجية كأمهات. ومن بعدهن جاء تفوق الرجال،

والذي كان منحة اجتماعية من النساء. فهم هذهِ الحقائق التاريخية، ضروري من أجل تجنب الاحكام التعسفية المؤسفة التي تنشأ عن عاطفة التحيز الجنسي. ومن أجل استيعاب هذهِ الحقائق يجب انهاء أسطورة أن النساء أدنى مكانة من الرجل بحكم الطبيعة.

الفصل الثالث

كيف فقدت النساء التحكم بمصائرهن

وما السبيل لاستعادة زمام الأمر

مشاكل الجنسين والزواج والعائلة، أثرت بشكل عميق على قدر المرأة وهي الشاغل الأهم للنساء في حركة التحرر. فهل تُعتبر تلك المسائل مشاكلاً خاصة أم أنّها مسألة عامة؟ السؤال لا زال يفاجئ العديد من الناس الذين ينظرون إلى العلاقة الحميمية على أساس أنها شأن شخصي، يجب ان يتم التكتم عليه بخصوصية تامة. بإمكانهم حتى تقريع البلد بأكمله بهذا الشأن. التجارب الشخصية المؤلمة، والتي تولد ضغطاً نفسياً ومحنة عصيبة يجب أن تصبح مسألة عامة. لكن ما هي حقيقة الوضع في المجتمع الرأسمالي؟[59]

في كتابه «التخيل الاجتماعي» يوضح رايت ميلز هذه النقطة متحدثاً عن التمييز بين «المشاكل الشخصية» و«المشاكل العامة» قائلاً: «المشاكل الشخصية تتضمن فرداً واحداً ومجموعة صغيرة من المتأثرين في المحيط» لكن «المسألة أو المشكلة العامة يجب أن يمتد تأثيرها إلى البيئة الاجتماعية لأولئك الأفراد» لتشمل بنية اجتماعية كاملة. أنه يعطي بضع توضيحات للتمييز بين هذين النوعين من المشاكل.

خذ مسألة البطالة، في مدينة من 100 ألف فرد، يوجد رجل واحد فقط بلا عمل، تلك «مشكلته الشخصية» والتي يمكن تفسيرها ربما على أساس صفات معينة في الرجل، كأن تنقصه المهارة أو الفرصة. لكن لو أن بلداً من 50 مليون عامل، لا يتحصل فيه 15 مليون شخص على

عمل فإن المسألة تتخذ مساراً مختلفاً تماماً. إنها تمثل على الأقل انهيارا جزئيا للبنية الاجتماعي، لذا فإنها تصبح مسألة شأن عام ومسألة سياسية.

المثال الثاني الذي يدرجه هو أن التحول نفسه من الكمية إلى النوعية، يحمل تعادلاً حقيقياً في معظم العلاقات الحميمية بين المرأة والرجل:

«أمعِن النظر في الزواج. يمكن أن تكون هناك مشاكل شخصية في زواج أي رجل وامرأة، لكن عندما يزداد معدل الطلاق خلال الأربع سنوات الأولى من الزواج إلى 250 من كل 1000 حالة؛ فإن هذا مؤشر لمشكلة يجب أن يتم التعامل معها من قبل مؤسسة الزواج، والعائلة والمؤسسات الاخرى التي تستند عليها». [60]

في العشر سنوات التي تلت إصدار عالم الاجتماع من جامعة كولمبيا كتابه هذا، ظلت حالات الطلاق تزداد باطراد. معدل الانفصال اليوم هو واحد من كل ثلاث حالات زواج، وفي ولاية كاليفورنيا صارت النسبة أكثر من ذلك حتى. فمن بين كل حالتي زواج ثمة حالة واحدة تنتهي بالطلاق. هذهِ الأرقام بحد ذاتها تشهد على أن العلاقات الخاصة بين الرجال والنساء تعدت كونها مشاكل شخصية، لتُصبح مشكلة عامة ضخمة. كما يستنتج ميلز بنفسه «مشكلة الزواج المرضي للطرفين، لم تعد تصلح لها الحلول الشخصية فقط».

ثمة جانب آخر لهذهِ المشكلة؛ بما أن الزواج متصل بالعائلة في مؤسسة واحدة، لذا فإن الزواج والعائلة يتبادلان التأثير الديناميكي، وهكذا فإن المعدل الكبير للانفصال يشير بطبيعة الحال إلى هشاشة العائلة بالمقابل. هذا التزايد المطرد للانفصال، وتهدم أسس المؤسسة العائلية، مستمر بالحدوث رغماً عن أنف البروباغندا الكنسية القديمة والتي تصرح أن العائلة ثابتة، وأنها بنية غير قابلة للهدم، وهي القاعدة الأساس للمجتمع، والتي لا يمكن تصور حياة الإنسان بدونها. تآكل العائلة، أيقظ بالفعل الاهتمام بالتحقيق والنظر في التاريخ من أجل التقصي عن دور العائلة، مِن قبل العديد من النساء في الحركة التحررية. لقد قادهن ذلك إلى التشكيك بشكل صريح بكل الافتراضات القديمة عن تلك المؤسسة.

وبالمحصلة؛ فإن المرحلة الجديدة من حركة تحرر النساء بدأت على مستوى أيديولوجي عالٍ، وبرؤية أكثر تقدماً من أسلافهن من قائدات الحركة النسوية في القرن الماضي. في تلك الفترة

المبكرة، تقوقعت الكثير من النساء التقدميات في النضال النسوي، ليقيدن أنفسهن بالمطالبة بحقوق قانونية متساوية مع الرجال في مسألة الملكية والعائلة، طالبت النساء بحقوق مدنية متساوية مع الرجال؛ كالحق في التصويت وما إلى ذلك. لكن مع القليل من الاستثناءات؛ فإن النسويات الأوائل لم يتعرضن لمؤسسة الزواج والشكل البرجوازي للعائلة أكثر من تحديهن للنظام الرأسمالي للملكية الخاصة نفسها. ظل الزواج من وجهة نظرهن يمثل «الزواج المقدس» والعائلة حملت هالة «العائلة المقدسة» فلا تمس، ولا يتم التشكيك بتلك المنظومة الأبدية للعلاقات الانسانية.

أما اليوم فهذهِ التصرفات التي كانت مقبولة سابقا، وتلكم القيم تخضع لتغير عميق، في كل من الحياة الفعلية والمعايير الأخلاقية المتغيرة في البلد. مناصرات الحركة النسوية الليبرالية يبحثن عن اجوبة أكثر علمية، وأكثر واقعية، لتحل محل التعنصر القديم ضد النساء، وبروباغندا الزواج والعائلة، والتي يجب أن تصبح مسألة عامة تشعل حركة التفكير.

كيف يمكن لمسعى مثل هذا أن يبدأ؟ من وجهة نظري فأن أولى الضروريات كلها، يتمثل في دحض الافتراضات المنتشرة والخاطئة عن كون العائلة هي وحدة الحياة بحكم «الطبيعية»، وخرافة أن العائلة أزلية الوجود، وستظل مستمرة إلى الأبد، لكونها تتجذر في الحاجات البيولوجية الأساسية للإنسان من جنس وتكاثر. تقول الأسطورة أن الذكر والأنثى ينجذبان لبعضهما البعض بفعل حاجتهما الطبيعية للجنس، لذا يتزوجان، عند ذلك يحدث التناسل وتُنجب المرأة طفلاً، يذهب الأب إلى العمل ليعيل العائلة التي تعتمد عليه، بينما تبقى الأمّ في المنزل لتعتني بالصغار.

هذا التقديم المبسط يؤكد، ويصر على أن لا طريقة لإرضاء الحاجة الطبيعة للجنس والإنجاب غير الزواج والعائلة الأبوية. بل يتم الزعم بأن الحيوانات مثلها مثل الإنسان تلتقي وتتزاوج، وأن جذور الزواج والعائلة، تعود بأصلها إلى العالم الحيواني. لذا فإن هذهِ العلاقات ليست دائمية وثابتة وحسب، ولا يمكن زحزحة موقعها المركزي في حياة الإنسان، لكن كما يشهد الزمن، فإن هذهِ العلاقات تمثل كذلك الطريقة الأفضل والأكثر مقبولية في ارضاء الحاجات الطبيعية. على أي حال فإن هذهِ الادعاءات لا تصمد أمام التدقيق والتمحيص، لمَ الإصرار إذن عليها؟ الخطأ الجوهري يمكن في الخلط بين الحاجات الطبيعية للجنس والتناسل، والتي يتشاركها البشر مع الحيوانات، وبين النظم الاجتماعية للزواج والعائلة، بينما هي في واقع الأمر نظم تقتصر على النوع

البشري وحده. ثمة فرق شاسع للغاية بين الظواهر البيولوجية والظواهر الاجتماعية؛ الظاهرة الطبيعية هي نتاج الطبيعة، أما الظاهرة الاجتماعية فهي نتاج الإنسان.

الجنس البشري هو الوحيد القادر على وضع الحواجز والموانع في وجه حاجاته الطبيعية، لذا فهو الوحيد القادر على صنع نظم للحاجات الطبيعية، لغرض التحكم بها وتقييدها. العلاقة الجنسية في المجتمع محكومة بقوانين الزواج، والإنجاب محكوم بقوانين العائلة. القوانين التي هي صنيعة الإنسان، لا مماثل لها في العالم الحيواني، إذ يحدث الجنس بلا زواج، والإنجاب لا ينتج وحدة عائلية أبوية.

بينما يمثل كلّ من الزواج والعائلة اندماجاً للحاجات الطبيعية بالعوامل الاجتماعية، فإن العوامل الاجتماعية وحدها التي تحسم مسألة تعريفها وتحديد خصائصها. على سبيل المثال ففي ظل قوانين الزواج الأحادي؛ يكون الزوج مخولاً قانونياً بكونه صاحب الحق الحصري بممارسة الجنس مع زوجته، وهي موجودة لخدمته. وفي ظل القوانين التي تحكم العائلة؛ مطلوب من الأب قانونياً إعالة زوجته وأطفاله. باعتباره المعيل في نظام اقتصاد العائلة هذا، فالزوج يحتل المركز الأساس في العائلة، وتحمل العائلة اسمه، وتحدد ظروف حياة أفرادها وفقاً لوظيفته، وطبقته الاجتماعية، ومكانته.

لذا فان العائلة مثلها مثل أيّ مؤسسة اجتماعية أخرى، إنما هي نتاج التاريخ البشري وليست نتاج البيولوجيا؛ أنها صنيع الإنسان لا الطبيعة، تجسد هذهِ المؤسسة التضييق على الحاجات الطبيعية للجنس والإنجاب، التي يتم تحديد شكلها والسيطرة عليها بالعوامل التشريعية والاقتصادية والثقافية.

ثانياً، ليس صحيحاً أن هذهِ المؤسسة كانت موجودة دائماً كوسيلة بشرية او اجتماعية لحكم الحاجات الطبيعية. الزواج والعائلة؛ لم يوجدا في المجتمع اللاطبقي، أو المجتمع الأمومي، ذلك المجتمع الذي لم يتشكل على أساس العائلة، بل القبيلة الأمومية. لا يقتصر الأمر على كون مؤسسة العائلة والزواج مشوهة وغير منطقية، أنما لها حياة قصيرة عند النظر لتاريخ المجتمع البشري، وقد بدأ بنيانها يتداعى بالفعل.

أخيراً؛ ليس صحيحاً أن مؤسسة الزواج والعائلة، قد تهيأت بأفضل الطرق الممكنة لإرضاء حاجات الإنسان، فكما تشير الإحصائيات بدأت العلاقات الجنسية ضمن مؤسسة الزواج تنحل،

وتتهاوى أمام أعيننا. لذا فمن العبث الاستمرار بالإصرار على أن هذهِ المؤسسة أحدثتها البيولوجيا أو طبيعة البشر، أو فرضها الإله أو تفرضها الحكومة، واعتبارها الشكل الأنسب لإرضاء الرغبات الطبيعية. التدقيق والتمحيص في مسألة تزعزعها يبين لنا العكس تماماً؛ ذلك أن هذه المؤسسة ليس بوسعها تلبية حاجات الإنسان أكثر من ذلك. ولو أنها كانت ضرورية قبل اليوم، فإنها الآن قد أضحت دون فائدة.

لكن المؤسسات الاجتماعية قابلة للتغيير. أيّ كانت تلك المؤسسة وأي كانت فائدتها في مسار التاريخ البشري، ما ان تستهلك وتتداعى، يمكن تغييرها، إعادة تشكيلها أو حتى استبدالها بالمطلق من قبل الرجال والنساء. في واقع الأمر، وبما أن النساء هن «الجنس الآخر» اليوم، وهن الأكثر غضباً وحنقاً على موقعهن في هذه المؤسسة العتيقة؛ لذا فمن المتوقع أن يأخذن زمام المبادرة، ويتقدمن لإحداث التغييرات الملائمة في المجتمع ومؤسساته، التغييرات التي ستجلب لهن الانعتاق.

الأعداد المتزايدة من النساء المنتفضات في ثورة ضد الوضع الراهن، يبحثن عن تفسير للأسئلة التالية:

1- أيّ مجتمع هذا الذي يحتاج لنظم الزواج والعائلة، وما الغرض من إيجادها؟

2- كيف يمكن لهذهِ النظم تلبية الحاجات البشرية، وهي قائمة في حقيقتها على اضطهاد المرأة؟

3- ما هي الإمكانيات المتاحة وما الذي يتوجب على النساء فعله، لتتمكن المرأة من استعادة زمام السيطرة على مقدرات أمورها؟

أما فيما يخص السؤال الأول: «أيّ نوع من المجتمعات يتطلب وجود نظم للزواج والعائلة وما الغرض من وجودها» فإن العديد من المشاركات في حركة تحرير المرأة لديهن الاجابة على هذا السؤال بالفعل، أو جزء منه على الأقل. لقد قرأت هؤلاء السيدات كتاب أنجلز الكلاسيكي «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» والذي على الرغم من أن قرناً كاملاً قد مضى على كتابته، إلا أنّه لا يزال مؤثراً، وذلك لرغبة النساء الراديكاليات في تعلم كل شيء بوسعهن تعلمه عن هذه الموضوع، لقد تعلمن من هذا الكتاب أن المجتمع الأبوي الطبقي هو الذي أسس للزواج الأحادي،

والغرض الفعلي من تأسيسه كان لخدمة مصالح الرجال المرفهين من أصحاب الأملاك، وتنظيم عملية نقلهم لملكياتهم.

في المراحل المبكرة من النظام الأبوي، في زمن الإغريق والرومان تم تعضيد هذه المؤسسات، ووضع القواعد المطلوبة للزواج والتي تم فرضها فيما بعد بالقوة. أسس القضاة الرومان لمبدأ potestas patria (أي حق الأب)، وأكدوا كذلك على قوانين الملكية والتي مهدت الطريق لتأسيس قوانين الزواج، والتي بقيت على حالها خلال المراحل الأساسية الثلاث للمجتمع الطبقي: الاسترقاق والاقطاعية والرأسمالية.

في ظل عصر الرقيق؛ كان الزواج محصوراً بالأرستقراطيين وهم الطبقة الغنية والسادة النبلاء فقط، فلم يتزوج العبيد، بل حتى أن تزاوجهم كان محصورا برأي سيدهم، أو من سيكون سيدهم. لكن في تلك المرحلة المبكرة من التطور الاجتماعي لم يكن حتى الأغنياء يتزوجون بالمعنى الرسمي للكلمة، كان ذلك تساكناً كقرينين وفقاً لما هو متعارف عليه من تقاليد وعادات.

لذا فإن الزواج، بدأ في حقيقة الأمر ابتكاراً من الطبقة العليا، من أجل الحق الحصري بالثروة، الدور الحاسم الذي لعبته الملكية الخاصة في نشوء الزواج، والذي فرضته المؤسسة الطبقية؛ يختصره بريفولت:

> «الزواج الأرستقراطي الروماني أسسه الأرستقراطيون أنفسهم لأجل حماية الأملاك، لم تعتبر حالات الاقتران لدى المعدمين على أنها حالات زواج أبداً. الرجل العامي الروماني «لا يعرف أباه الفعلي».. «زيجات العوام» لم تفرق كثيراً عن حالات اقتران الحيوانات في البرية.... لم يسخر الأرستقراطيون من زيجات العامة بهذا الشكل فقط، بل رفضوا حتى السماح لهم بتبني الزواج الأبوي. كان امتيازا أرستقراطياً بحق، غرضه التيقن من هوية الوريث الشرعي، ليستحق وراثة ممتلكات الأب». [61]

ننقل عن مصدر آخر:

> «عندما ندرك أن اثينا في العام 300 قبل الميلاد، كان سكانها 515 آلف نسمة، لتسعة آلاف فرد منهم فقط الحق بالزواج. هكذا يكون بوسعنا أن نستوعب حقيقة أن الزواج بني على أساس كونه مؤسسة طبقية». [62]

في البداية، كانت حقيقة أن الملكية هي أساس الزواج والعائلة الأبوية مسألة أكثر وضوحاً بكثير من الآن، قوانين الزواج الأحادي للإنسان كانت للتأكيد على حق التملك الحصري للزوجة، التي تُنجب له أطفاله الشرعيين لوراثة ملكيته، له السلطة الكلية على أطفاله وعلى زوجته كذلك. لإظهار الانحطاط الذي لا مراء فيه لمكانة المرأة في هذه الفترة؛ يستشهد أنجلز بمسرحية يوربيديس حيث النساء «oikurema – مخلوقات منزلية» خُلقن كأداة لرعاية البيت، إلى جانب ولادتها الأطفال، فهي تخدم الزوج والأبن بلا مقابل، لكن كرئيسة الخدم في البيت.[63]

المغزى الأساسي للزواج أصبح أقل وضوحاً في المرحلة التالية من المجتمع الطبقي، أي المرحلة الاقطاعية؛ إذ امتد الزواج ليشمل الطبقات الأدنى. قل اهتمام النبلاء والأرستقراطيون بممارسات الزواج لدى مستخدميهم في الأقنان؛ بالنسبة لهم كان الزواج القانوني لا يزال حقاً للأغنياء. على أيّ حال مع صعود المسيحية وجدت الكنيسة أن الزواج يناسب توجهاتها، لعدة أسباب معقدة امتد الزواج ليشمل الفقراء. ففي القانون الكنسي كل مسيحيّ مجبر على الاستفادة من هذا الامتياز الجديد، الرباط المقدس للزواج، مع ذلك، وعلى الرغم من كونه أمراً خاصاً بالمسيحين وحدهم، قطاع كبير من الناس البسطاء تم جذبهم إلى حظيرة الزواج إلى جانب الناس الأغنياء. لكن الشكل الرسمي للزواج القانوني كان لا يزال غير منتشر في العالم.

الزواج العالمي، الشامل لكل الطبقات، صار ميزة الحضارة الغربية مع صعود العلاقات البرجوازية. مع ذلك فقد استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يصبح الزواج فرضاً قانونيا. الفقراء المعدمين مروا بفترة من الزواج «العرفي» قبل أن يتحصلوا على نفس النوع من الروابط القانونية للزواج، مجبرين بقانون الدولة، مثلهم مثل الطبقات الموسرة. اليوم مع أو بدون الزواج الكنسي، فإن الأزواج من كلّ الطبقات يحصلون على نفس وثائق الزواج المصدقة قانونياً من قبل الدولة، والتي تؤكد على كونهم متزوجين بشكل رسمي وقانوني.

في المرحلة الحالية من تطور نظم الزواج والعائلة القائمة على التملك، صارت هذهِ النظم غامضة، تغفل حقيقة أن الفقراء والمعدمين ملزمين للدخول إلى قفص الزواج القانوني للدولة مثلهم مثل الاغنياء. صار الزواج الآن إجبارياً لكلّ الطبقات. الفشل في استمرار الزواج، يسبب عقوبات قانونية من شتى الأشكال، والتي ليس اقلها وسم القرينة التي لا تتزوج قانونياً بقرينها بكونها داعرة،

ويعتبرُ اطفالها غير شرعيين. الأمّ العزباء وأطفالها يتم نبذهم اجتماعياً، وهذا القدر أسوء من الموت.

مما يثير التساؤل: كيف لمؤسسة أوجدتها الطبقة الموسرة لخدمة مصالحها التملكية أن تمتد للطبقة العاملة التي لا تمتلك إلا القليل أو لا شيء؟ كيف لمؤسسة طبقية المنشأ أن تصبح مؤسسة جماهيرية بالتقادم؟ الإجابة على ذلك موجودة في الطبيعة الرأسمالية للاضطهاد الطبقي.

أحدثت الرأسمالية صناعات واسعة الطيف إلى جانب حشد من الجماهير البروليتارية المحشورة في معامل المدن والمصانع. وقد تسبب ذلك في تغيير الوضع الاقتصادي للمرأة. عندما كانت الزراعة وحرف البيت مهيمنة على الإنتاج كل أعضاء العائلة، وبضمنهم النساء والأطفال كانوا يساعدون في العمل وإعالة العائلة والمجتمع. العمل التعاوني داخل أطار العائلة كان الصفة المميزة للحياة في الحقول، وفي المحال الصغيرة، والشركات المنزلية.

لكن مع صعود الرأسمالية الصناعية، تمت إزاحة هذهِ العوائل المنتجة من العصر قبل الصناعي، واستبدالهم بعائلات مستهلكة غير منتجة من الحياة الحضرية. ومع إزاحة جماهير الرجال من الحقول والأعمال الصغيرة، وجعلهم عمال بالأجرة في المدن الصناعية، جُردت النساء من مكانتهن السابقة في حقل الإنتاج، وهبطت مكانتهن ليقتصر نشاطهن على الإنجاب ورعاية المنزل. لقد أصبحن مستهلكات كلياً، معتمدات على من يكسب العيش لإعالتهن.

تحت هذه الظروف كان على رجل ما التصدي للمسؤولية بصورة مستمرة طوال الحياة، لإعالة المرأة العاطلة عن العمل والأطفال. كان ذلك أمراً ثابتاً عالمياً، مفروضاً على الزوج والأب رغم أن لا ضمانات فيم لو كانوا سيحصلون على أجورهم، أو سيجدون عملاً دائمي، أو أن يتحصلوا على أجور كافية لإيفاء الالتزامات العائلية.

لإخفاء هذا الاضطهاد الاقتصادي تم ابتكار أسطورة جديدة. في ظل العقيدة الكنسية للزواج «المنعقد في الجنة» والذي له حرمة إلهية. ازدادت البروباغندا الآن، فصار يروج لكذبة أن العائلة أمر من إنتاج «الطبيعة» وأن الإنسان لا يُمكن أن يُرضي حاجته للحب والأطفال من غيرها. لذا فقد أصبح الواجب «الطبيعي» للأب و/أو الأمّ في العائلة أن يتكفلوا بإعالة من يحبون، حتى لو كان أولئك عاطلين عن العمل، أو معاقين، أو حتى موتى.

لذا فالإجابة إذن على سؤالنا الأول «أيّ نوع من المجتمعات هذا الذي يحتاج لنظام للزواج والعائلة». ذلك هو المجتمع الطبقي، فهو يحتاج لهذا النظام، لخدمة مصالح الأغنياء. في البدء كانت مؤسسة الزواج تخدم غرضاً مفرداً ألا وهو التملك وتوريث الملكية الخاصة. لكنَّ العائلة اليوم موجودة لغايتين مزدوجتين؛ فمأربها الأول أن تكون أداة ضرورية في أيادي الطبقة الحاكمة لنهب الجماهير العاملة، أما المأرب الثاني للزواج المفروض قانونياً في كل العالم؛ فهو أنه يصب في مصلحة المتربحين من صعود نظام العبودية للأجر الصناعي، العائلة تريح الرأسماليين من أيّ مسؤولية اجتماعية عن رخاء العمال، ويتم إلقاء تلك الأعباء الاقتصادية الضخمة على كاهل الفقراء بشكل التزامات عائلية. كل عائلة نووية صغيرة يجب أن تعيش أو تُفنى بجهودها، مع مساعدة ضئيلة من المحيط، أو لا مساعدة على الإطلاق.

الاختلاف الوحيد بين الاضطهاد في المصانع والاضطهاد في العائلة؛ هو أن الأول يمكن تمييزه بسهولة على حقيقته، بينما لا نلتفت للاضطهاد في العائلة. ليس بوسعك اقناع العامل بالأجرة أن اقتصاده المعتمد على أصحاب الأموال هو اقتصاد مقدس، وهو اقتصاد فرضته الطبيعة، على العكس؛ فقد بدأ العمال بإدراك وضعهم وما يتعرضون له من اضطهاد. لكن في حالة العائلة؛ فإن الطبيعة الأمّ والإله يترابطان كلاهما لإخفاء الأساس الاقتصادي لنشأتها، لتُصبح العائلة «مقدسة» و«تفرضها الطبيعة» في الحقيقة الشيء المقدس الوحيد لدى الطبقة الرأسمالية الحاكمة هو الدولار العظيم وحقوق الملكية الخاصة. حتى حاجة الإنسان للحب، سواء أكان ذلك للرغبة الجسدية أم الحاجة لوجود طفل، تُصبح غير مفيدة في ظل الرأسمالية، ويتم تحويرها، والإلقاء بها في نظام اجتماعي لا يقوم على أساس الحب، بل على أساس الاعتبارات الاقتصادية.

مما يصل بنا إلى السؤال التالي: كيف انحطت مكانة المرأة بسبب هذا النظام، وحاجتها للتمرد عليه.

من الجدير بالملاحظة أن من مطالب النساء في حركة التحرير اليوم، أولاً وقبل كل شيء أن يمتلكن السيطرة على أجسادهن. حالياً ترتفع هذهِ المطالب عالياً بخصوص وظائفهن الانجابية وحقهن بالإجهاض. لكن هناك جوانب أخرى متصلة بحقوق المرأة وهي الحق بتقرير المصير، يتضمن ذلك الحق في التطور الفكري غير المقيد، وفسح المجال لهن لتنمية المواهب في الحياة الفكرية والثقافية، والحصول على العلاقات الجنسية وعلاقات الحب المرضية، كل تلك الحاجات

البشرية الاجتماعية والجنسية والفكرية كانت قد ازدادت صعوبة، وتشوهت بضيق الحيوات المفروضة على النساء في نظامنا الخاص بالزواج والعائلة.

آثار هذا الحرمان يمكن قياسها عند المقارنة بين طبيعة الحياة الاجتماعية في المجتمع قبل الطبقي وحرية العلاقات الجنسية للمرأة في ذلك المجتمع، والقيود التي تسيطر عليهن في المجتمع الطبقي. في المجتمع البدائي القائم على الإطار الجمعي للإنتاج حصلت النساء على مكانة عالية في شؤون القبيلة، لم يكن هناك سيطرة من الرجال في قابليتهم الفكرية وحريتهن الجنسية.

في مجتمع كذلك المجتمع، قائم على الحقوق المتساوية للجميع، بضمنها المساواة الجنسية لم تكن هناك أيّ حاجة وظيفية للزواج القانوني. عوضاً عنه كان هناك مجرد تساكن بين اثنين أو «عائلة اقترانية» كما يدعوها مورغن وأنجلز. كان للنساء مثلهن مثل الرجال حرية الاختيار في علاقات الحب، ويتم اتحاد القرينين ويدوم وفق رغبات الشريكين فقط لا غير.

الانفصالات لم تكن لتؤذي وضع النساء أو الأطفال ما دامت إعالة الأفراد جميعهم تقع على عاتق المجتمع الذي يحيون فيه، لا من خلال «الاقتصاد العائلي».

بالمختصر فإن النساء لم يحتجن إلى الأزواج كوسيلة دعم؛ كانت المرأة مستقلة بنفسها اقتصادياً كعضو منتج في المجتمع. أعطى ذلك للنساء كما الرجال الحرية في اتباع رغباتهم الشخصية في العلاقات الجنسية. كان للنساء الخيار في البقاء مع زوج واحد مدى الحياة، ولكن بلا قيود قانونية أو ضغوط اقتصادية لفعل ذلك.

هذهِ الحرية تم تحطيمها مع تطور المجتمع الطبقي والملكية الخاصة والزواج الأحادي. ما إن حرمت النساء من العمل المنتج في المجتمع وفقدن استقلاليتهن الاقتصادية حتى أصبحن يعتمدن على الزواج كمعيل، عندها أصبح الزواج هو الشاغل الأول في حياة المرأة. في الطبقات المتملكة كانت المرأة تُحبس، وتتم معاملتها على أساس كونها مثل أيّ سلعة اقتصادية. والد المرأة يدفع بالمال إلى الزوج، والذي يُدعى «المهر». «وفر الآباء في أثينا المهر كتحريض للرجال على الزواج من بناتهم، وقد تمركز الاتجاه نحو الزواج في اليونان حول موضوع «المهر» يقول بريفولت. وهو يضيف أن المهر كان الفيصل «في التسهيل التشريعي لمؤسسة الزواج»

حق امتلاك المرأة يتحول من الأب إلى الزوج، بعد دفع المهر. تكون المرأة مجبرة على وضع كل شيء خدمة الزوج؛ عقلها ودماغها ورحمها وعملها في المنزل. في هذا التحول فقدت المرأة السيطرة على جسدها وعلى عقلها كذلك. من الآن صار «جسد وروح» المرأة ملكية خاصة لزوجها، وهو الذي يتخذ لها كل القرارات الأساسية نيابة عنها، ويسيطر عليها وعلى نسلها.

هذهِ دلائل على أن الزواج عند تعرية أسسه، نجده قائماً على الرباط الاقتصادي المتوارث في هذهِ المؤسسة. في اليونان القديمة، كما يشير أنجلز أصبحت الزوجة عبدة لزوجها، مقيدة ومحروسة في مرابع الإناث في بيته، لتمضي أطوار حياتها في خدمته هناك.

في هذا النظام، كان رحم المرأة بالغ الأهمية، أما دماغها فلم يكن له أي حساب. وكما يظهر تاريخ المجتمع الطبقي فإن عقول ومواهب الزوجات لم تعطَ أيّ فرصة للتطور، عندما تم اختزالها في أطار الواجبات المنزلية وفي مخدع الزوجية لم يتطور ذكاء المرأة، بل صار الجنس الانثوي متخلفاً ثقافياً. لقد عانى الجنس الأنثوي مثلما عانت شعوب البلدان المستعمرة تحت السيطرة الامبريالية.

لم تقتصر خسارة النساء على فقدان السيطرة على المصير فحسب، بل حُرمن الرضا في الحب والجنس. كما يشير أنجلز فان الزواج الاحادي كان منذ بدايته أحادياً للمرأة فقط. وفي ظل شروطه القاسية كان على الزوجة أن تقيد علاقاتها الجنسية وتحصرها بالزوج وحده، وبينما كانت النساء محرومات من الارتباط بالرجال الاخرين، ويتم معاقبتهن بشدة على الخيانة الزوجية، لم ينسحب هذا التقييد ليشمل الأزواج الذين كانوا يتصلون بنساء اخريات بحرية. فالنساء في عرفهم موجودات بنوعيات مختلفة؛ والنوع الأقل إثارة لرغبة الرجل هو النوع الصالح للزواج. كانت النساء الأكثر جاذبية لدى اليونان هن الهاتيراي، وهذا النوع من النساء الجذابات لا يرغب الرجل بالزواج منهن لشدة جمالهن وذكائهن، وقد أصبح بعضهن مشهورات بمواهبهن الفكرية والفنية، ومن بعدهن في المرتبة كانت البغايا (الأبورناي)، وتحل الزوجات في آخر الدور.

لذا فعلى الرغم من كون الزوجة تحل في المرتبة الأولى قانونياً؛ إلا أنها الأقل تمتعاً بالرفقة الفكرية أو الجنسية من زوجها. السياسي الاغريقي ديموستيني لخص الوضع كالتالي: «لدينا الهيتاراي لمتعتنا، والأبورناي يوفين حاجة الجسد اليومية، أما الزوجة فهي موجودة لتنجب الأطفال، وتقيم عماد العائلة».[64]

تحت ظروف كتلك فإن العلاقة بين الرجل وزوجته المقيدة بالمنزل، الزوجة التي لا يوجه أفكارها إلا اتجاه واحد، كانت مختزلة إلى الحد الأدنى. وكما يصفها أنجلز؛ العلاقة بالزوجة، كانت في شعور الرجل «عبء» عليه «واجب يتحتم تأديته، لا غير» ليس من المدهش عند النظر إلى حجم النسوة الكثيرات اللواتي يتم تجاهلهن في الزواج أن «القانون في اثينا لا يدعم فقط الزواج، بل يجبر الرجل على تأدية الحد الأدنى مما يسمى بالواجبات الزوجية»

من الواضح إذن أن الزواج لم يوجد لتلبية الحاجات الانسانية الطبيعية للحب الجنسي والرفقة في تلك الزيجات. وواضح أنه قائم على خدمة مصالح المالكين الذكور للملكية الخاصة، وقد احتفظ بوظيفته كمؤسسة تملكية خلال المرحلة التالية من المجتمع الطبقي، في العصور الوسطى.

في فترة الاقطاعية كان السادة والنبلاء قد صنعوا عقود ملكية الأرض، ليتبادلوها بينهم، وكانت النساء تقدم معها قطعة من الأرض كجزء من اتفاقية الزواج. هذه الزيجات كانت غالبا ما يتم عقدها بينما لا تزال هي طفلة، مثال على ذلك يعطيه ويل ديورانت:

> «غرايس دي سلبي كان عمرها أربع سنوات وتم تزويجها لرجل كبير من النبلاء، والذي بوسعه الاحتفاظ بممتلكاتها، لكنه توفيّ وتم تزويجها إلى ست لوردات آخرين، وعندما بلغت الحادية عشر كانت متزوجة بزوجها الثالث.. حقوق الملكية الخاصة تجاوزت الرغبة بالحب، والزواج كان مسألة مالية».[65]

صحيح أن علاقات الحب الرومانسية ازدهرت في العهد الاقطاعي، لكن من الجليّ أن ازدهارها حدث خارج رباط الزواج. حتى زوجات اللوردات تمتعن بمسرات العشق الممنوع، وعلى الرغم من أنّ تشوه سمعة المرأة والخزي كانَ أمراً وارداً في مثل تلك الحالات، إلا أن التكتم بشأن العلاقات لم يكن سوى رسميات فارغة، بالمختصر لم يبذل إلا القليل لإخفاء حقيقة أن الزواج لا علاقة له بالحب، في عرف الفروسية حتى زواج المحبين أُعتبرَ فضيحة.

اندماج الحب بالزواج جاء مع علاقات «حرية الاختلاط» في الرأسمالية، ونشوء الطبقة البروليتارية من العمال بالأجرة. هذا لا يعني أن هذا الاندماج كان نجاحاً ساحقاً، لأن الحب يجب أن ترافقه العديد جداً من العوامل المتنوعة الاخرى. من المؤكد أن أغلب العمال ليس عنده إلا القليل من الممتلكات هذا إن لم يكن معدماً أساساً، لذا كان من الطبيعي أن يصبح التجاذب المشترك والحب

أساساً للزواج. لكن ذلك ليس مطابقاً للقصص الخيالية، حيث يعيش المحبان بعد الزواج في حياة سعيدة إلى الابد. من خلال الاحصائيات بوسعنا أن نرى أن علاقات الزواج في الطبقة العاملة تنهد وتتحطم بنفس السرعة كما يحدث في الطبقات الوسطى وبين الأغنياء.

مرة أخرى نجد أن الرضا وتلبية الحاجة للحب والجنس لم تنجح به مؤسسة الزواج والعائلة والمعتمدة على استغلال الطبقة العاملة، عبر نظام اقتصاد العائلة. تلك حقيقة واضحة لاسيما في حالة النساء، عندما لا تكون للنساء الكثير من الخيارات في الحياة عدا ان تكون زوجة، يصبح مصطلح «المعيل الجيد» متوافقا مع مصطلح الزوج. أما اليوم وقد صار عدد كبير من النساء المتزوجات يعملن خارج المنزل، لا يزلن مع ذلك يتحملن عبء كل حاجات البيت الأساسية والمسؤوليات. تتعرض المرأة لاضطهاد مضاعف، يتم استغلالها في العمل من قبل أصحاب الأموال، وهي مضطهدة في البيت بسبب الواجبات العائلية.

ها هنا إذن تكمن الاجابة على سؤالنا الثاني: كيف يمكن لهذِهِ النظم تلبية الحاجات البشرية، وهي قائمة في حقيقتها على اضطهاد المرأة؟ الجواب: لأن المؤسسة شُيدت من قبل الطبقة الحاكمة الغنية لتخدم مصالحها، فهي ليست وسيلة لإرضاء الحاجات الانسانية وبالذات حاجات النساء والعمال، إذ أنها لم تُستحدث لهذا الغرض من الأساس. الزواج وسيلة اضطهاد تم فرضها من قبل المجتمع الطبقي الاستغلالي.

حقيقة أن النساء مضطهدات بشكل مضاعف كعاملات وكنساء، هذِهِ الحقيقة بالذات أعطت روحاً جديدة وقوة دافعة لحركة التحرر النسائية في عصرنا. وتوخياً للحديث بدقة فإن الأعداد الكبيرة من النساء اللواتي صرن اليوم نساء عاملات، هو ما وفر الوسائل والقدرة لتحدي هذا النظام المضطهد. لأنه مع تزايد تدفق النساء ليعملن بالأجرة في المصانع والمكاتب والمهن، أحرزت نساء القرن العشرين شيء جديد، لم تتمكن معظم أسلافهن في القرن التاسع عشر من إحرازاه إلا وهو الاستقلال الاقتصادي.

من الجليّ أن الوظائف الأدنى، والأكثر هامشية خصصت للنساء، وبأجور أدنى من أقرانهن من الرجال. مع ذلك فإن هذا الدخول إلى الاقتصاد الاجتماعي كان نقطة البداية التي احتاجتها النساء من أجل المضي في النضال. صارَ للمرأة خيار آخر سوى الانغماس المطلق طوال الوقت في جو من البؤس والاتكالية في عزلتها المنزلية والعائلية. صارَ بوسعها الالتقاء والعمل مع نساء اخريات

كما يفعل الرجال مع أقرانهم، لتكتشف نقاط التشابه بينهن في التطلعات وفي المعضلات التي تعترض طريقها سواء في العمل خارج المنزل أو في الحياة العائلية. لذا فقد كان تدفق النساء إلى ميدان العمل الأكثر رحابة دفعة كبيرة في الوقت ذاته للخروج من الركود الاجتماعي والفكري.

أعداد النساء العاملات خارج المنزل؛ وهذا لا يشمل النساء العزباوات فقط، بل حتى المتزوجات والأمهات، هذهِ الأعداد في تزايد مع كل عقد يمضي منذ الحرب العالمية الأولى. النساء اللواتي يعملن بدوام كامل أو جزئي طوال حياتهن أو في جزء منها، عند أخذهن بالحسبان يتبين أن 90 % من النساء الأمريكيات اليوم يعملن في مرحلة ما من حياتهن؛ وفقا للتقرير الأخير لمكتب العمل.

هذا الرقم الذي يستشهد به أم وجي رونتري في مقالتهما المنشورة في يناير 1970 في Monthly review والمعنونة «عن الاقتصاد السياسي لتحرر المرأة» في الاستنتاج يقولان:

> «الحفاظ على العائلة، وتجنب الفقر صار اليوم وفي الكثير من الحالات يعتمد بشكل كبير على طرفين لا طرف معيل واحد. هذه العملية غير قابلة للعكس، مشاركة النساء في العمل المأجور لا يمكن الاستمرار بالنظر إليها كما لو كانت مسألة مؤقتة، لقد فات وقت عودة النساء إلى المنزل».

هذه الحقائق هي الدافع الذي يشكل مطالب حركة التحرير النسوية. نعم، لقد مضى الوقت الذي كانت فيه النساء صامتات وعاجزات خاضعات للامساواة والتمييز والتدني المفروض عليهن كجنس من قبل المجتمع الرأسمالي. أكثر المقاتلات اليوم أتخذن من الهجوم وسيلة للتعافي من السيطرة على أجسادهن، وعقولهن، وعلى حيواتهن، الحياة التي قيدت لبضعة آلاف من السنين لصالح الملكية الخاصة. أنا أزعم أن تلك عملية غير قابلة للعكس كذلك، وستستمر بالانتشار والانتشار لتصل إلى طبقات جديدة من جنسنا.

يصل بنا ذلك كله إلى السؤال الأخير: ما هي مصير مؤسسة العائلة، وما الذي يجب فعله من قبل النساء لإعادة السيطرة على مقدراتهن؟ يتجلى لنا هنا حقيقة أن كل النساء في حركة التحرير تقريباً يعتقدن بوجوب إعادة تشكيل مؤسسة العائلة، تُدرك النساء كذلك أن هذه المهمة ترتبط بشكل صميمي بإعادة تشكيل المجتمع نفسه. مع هذا فالنساء لا تقف بانتظار حدوث الثورة الاجتماعية؛ تلك

التي ستحقق النصر النهائي لمساعي التحرر. على العكس من ذلك، تتكاتف النساء للعمل جاهدات للوصول إلى تلك المساعي عبرَ الضغط المستمر بالقوة المطلوبة. ولقد حدثت بالفعل بعض التغيرات المهمة حدثت فيما يخص الجنس والزواج والعائلة.

خذ على سبيل المثال، واحد من أكثر المطالب أهمية التي ترفعها النساء اليوم هو المطالبة بحق الإجهاض. في سياق هذا الصراع تشدد النساء على ضرورة أن تمتلك المرأة الحق بإنهاء الحمل غير المرغوب حتى يتم ابتكار وتوفير وسائل منع الفعالة والآمنة تماماً لكل النساء. أُنجزت بعض النجاحات القانونية الملفتة للنظر إجابة لهذا المطلب، وبوسعنا التكهن بتحقيق نجاحات أخرى في المستقبل. لكن لا تزال هناك مسالة أكثر عمقا في هذا الصراع، مطالبة النساء بحق الإجهاض هو تحد مباشر لهذا المجتمع ذو السيطرة الذكورية في سبيل السيطرة على فعالياتهن التناسلية.

ليس هذا الهجوم الوحيد الذي شننته النساء اللواتي شرعن باستعادة السيطرة على أجسادهن. المعدل المتزايد من الزواجات المنتهية بالفشل يشير لكون النساء قد سيطرن على حياتهن الجنسين بدون التنظيمات المعقدة للزواج. لعدة سنوات كانت «الثورة الجنسية» كما تدعى أحيانا تحدث على مستوى أكثر تكتماً، أما اليوم فقد غدا الأمر واضحاً وضوح الشمس مع بزوغ حركة التحرر النسوية.

نساء اليوم يفضحن المعايير المزدوجة المنافقة ويرفضنها، تلك التي تعطي للرجال الحرية الجنسية وتضن بها على النساء. هذا «الانفتاح الجنسي» يغزو كل قطاعات المجتمع. حتى أن الجنس قبل الزواج والعلاقات الجنسية خارج أطار الزواج صارت أمراً عادياً هذه الأيام، وكما تشهد ماريا مانيز، وتعلق بوضوح في البرامج التلفازية التعليمية: «صارَ الزواج يتضعضع ويتداعى في كل مكان حولنا»

هذا انعتاق مدهش عن سلوك ورؤيا حتى النساء التقدميات في القرن التاسع عشر اللواتي حاربن من أجل الحقوق المدنية لجنسنا، لكنهن بقين متحفظات حول المسائل الجنسية للمرأة، ولا تزال معظمهن يقفن في صف الاخلاق الأفلاطونية، والتي وسمت الحب خارج أطار الزواج على أنه شهوة وخطيئة لا أخلاقية.

أما اليوم فقد انقلبت الآية، ذلك أن النساء في حركة التحرير النسائية لا يحاربن من أجل السيطرة على اجسادهن وعلى عقولهن، أنهن ينادين لمعايير جديدة كليا ً للأخلاقيات الجنسية والاجتماعية، ترفض النساء التخفي والشعور بالذنب والعار الذي كان يجب عليهن مواجهته كنساء فيما يخص احتياجاتهن الجنسية. الأمر الذي كبل كلّ امرأة بمؤسسة الزواج. وكما تقول إحدى السيدات: يفترض بالناس أن يرتبطوا سوياً برباط الحب، لا بالقانون.

وعلى نفس المنوال؛ تدافع النساء ضد حط المكانة الجنسية للنساء في الدعاية والإعلانات المصممة لبيع البضائع للزبائن. أنهن يفضحن وكلاء الإعلانات الذين يستغلون الجنس الأنثوي ويقللون من قيمته، بغية بيع بضائعهم عبرَ العرض الإباحي في وسائل الإعلام الخاصة بهم.

هذا موضوع آخر للحملة التي أطلقتها النساء لفضح النفاق الاخلاقي للمجتمع الرأسمالي. أما الموضوع الآخر فهو رفض تقبل الرجال ممن يحاولون الإفادة من الحرية الجنسية التي تريدها النساء، من أجل ارضاء غرورهم الذكوري لا غير.

ليس ذلك خلاصة الأمر كله حتى، لأن نضال النساء في حركة التحرير النسوية من أجل إنتاج تقاليد اجتماعية وجنسية جديدة بدأ يمتد كذلك لنطاق الاخلاقيات العائلية. لسنين طويلة تم تلقين النساء حتى صدقت أغلبهن أن أعظم اشهار للحب، وأكثر أشكال العلاقات البشرية الباعثة على الرضا يحدث في العائلة وروابطها وفي الحب. اكتشفت العديد من النساء اليوم أن ذلك مغالطة للواقع، فحب العائلة يتحطم ويتشوه في مجتمع الاستهلاكية والمنافسة التي لا ترحم، وما تنتجه تلك الظروف من تمييز طبقي وعرقي، وتحالفات ذكورية.

في سعي النساء لإيجاد أخلاقيات عائلية جديدة، يقمن بتوضيح عيوب مؤسسة العائلة اليوم في مجتمعنا التسويقي لا سيما في بيوت الطبقة الوسطى، حيث يتم قياس الحب بعدد الأشياء التي يمكن للوالدين شرائها لأطفالهم، وما يوفرنه لهم من امتيازات خاصة وتدليل، وهذا بدوره يجعل الأطفال ملكية خاصة للوالدين، ويجعلهم تحت سيطرة الوالدين مثل أيّ شكل آخر من أشكال الممتلكات، وكما تم وصف ذلك

> «الحب كلمة تنادي ليتم إعادة التعريف بها.. الحب سلاح للسيطرة. وهو أحيانا يجرد الإنسان ليصير شيئاً فقط بالنسبة لشخص آخر يرضي أنانيته واضطرابه من

خلاله، حتى يصبح الناس مجرد نوع غالٍ من الأثاث في حياة الشخص الآخر».[66]

تشير ليندا غوردن إلى نقطة مماثلة في المجلة الممتازة التي تنشر في بالتيمور، مجلة women: a Journal of liberation إذ تكتب:

> «فعلاً غالباً ما تخلط النساء بين مسألة الحب الوالدي والتملك الوالدي؛ نادراً ما نلتفت لكون الحب نفسه قد أصبح سلعة في مجتمعنا الرأسمالي، الحب ليس تملكاً، الرغبة في تملك الإنسان ليست حباً له بل حباً لاستعباده».

«العائلة النووية» ضيقة الأفق تغمرها المرارة والشجارات في الغالب وتستفحل فيها العداوة دون الانسجام أكثر الأحيان، وهي بعيدة كل البعد عن كونها أفضل أشكال العلاقات الانسانية. ما يدعى «الشجارات الأخوية» والذي يراد لنا البعض أن نصدق أن منشأها الجينات، ليس سوى اسقاط للتنافس والخوف وانعدام الأمن، والغيرة التي انتشرت في المجتمع الرأسمالي ككل. ذات العوامل التي تغرب أفراد العائلة عن بعضهم، تُقسم العائلات عن بعضها البعض وتمنعهم من تمييز عدوهم المشترك. لكن سيستغرق الأمر بعض الوقت قبل إماطة اللثام عن كل تلك السمات الرجعية للعائلة، والتي تم تمجيدها لزمن طويل على أنها أفضل المؤسسات الممكنة، وكشف ذلك أمام أنظار جمهور النساء.

الصعوبات التي تواجهها النساء البيض في حركة التحرير النسوية، تزداد تعقيداً في حالة النساء السود والنساء في العالم الثالث. فرانسيس بيل المنسقة الوطنية لمجلس تحرير النساء السود في لجنة التنسيق الطلابية اللاعنفية أعطت تحليلاً ممتازاً لما يعنيه أن يكون الإنسان أنثى، وأنثى سوداء في هذا المجتمع في مقالة تمت إعادة طبعها في انطولوجيا المرأة السوداء من تحرير توني كاد وماكسين ويليامز من اتحاد نيويورك للشبيبة الاشتراكية واتحاد النساء السود، لقد ألقت الضوء على ذلك في مقالها التحليلي «النساء السود والصراع من أجل التحرير» في مجلة Militant في 3 تموز 1970.

ما الذي يضيفه كل هذا؟ الحافز الاساسي لانتعاش حركة تحرير النساء من جديد، هو من أجل استعادة السيطرة على حياتهن ومقدراتهن. من أجل تحقيق ذلك فالمرأة مجبرة من ناحية على الاستمرار في القتال من أجل حقوقها كامرأة عاملة، في سبيل المساواة الكلية بينها وبين الرجل في

الوظيفة والأجر، ومن ناحية اخرى فهي كامرأة تتخذ اليوم موقفاً صلباً في مواجهة مؤسسة الزواج والعائلة، هذهِ المؤسسة التي قيل إنها طبيعية وأزلية، لا مفر اليوم من رؤية أنها تخدم مصالح الطبقة الرأسمالية، ولا يمكن ان تخدم حاجات العمال أو النساء.

علاوة على ذلك، تنظر نساء الحركة التحررية إلى ما هو أبعد من العائلة، إلى النظام الرأسمالي بحد ذاته، ويتساءلن عن المصلحة في استمراره. في القطاعات المتقدمة على الأقل من الحركة، يتم تقبل المبادئ الأساسية لانجلز، والتي هي المبادئ الماركسية عن طبيعة المجتمع الرأسمالي. لذا فإن النساء الشابات المتمردات مثلهن مثل الرجال الشباب ما أن يشبوا عن الطوق حتى يتبينوا أن ما من شك بكون النظام الرأسمالي أكثر نظام لا أخلاقي ومجحف في كل التاريخ. أنه مجتمع حروب وإبادة عرقية واضطهاد عرقي وجنسي، حيث يتم اضطهاد الفقير والعاجز؛ مجتمع يلوث غذائه وهوائه ومائه، مجتمع السياسيين الفاسدين. بالمختصر، أنه نظام يبتذل فيه كلّ شيء، ويتم التضحية بكلّ شيء من أجل الملكية الخاصة والربح.

كل ذلك يثير مقت النساء المنتفضات لتبدأ مرحلة جديدة من حركة التحرر، تبدأ مع الميل القوي في الحركة لمعارضة الرأسمالية، وكما تصيغها تحريرية بالتيمور «لن ترضى النساء بما هو أقل من التغيير المطلق في العالم» هذهِ التيار المعادي للرأسمالية، من المتوقع له أن يتنامى.

الأمر الذي لا تزال معظم هؤلاء النساء غير واثقات منه، هو السؤال المستمر عن نوع المجتمع الذي سيستبدل الرأسمالية أو الوسائل والقوى المطلوبة والتي بوسعها إحداث هذا الانقلاب. بعضهن محبطات بسبب العديد من المجموعات «الراديكالية»، وهي مجاميع لا تمثل الماركسية الأصيلة ولا تفهم حركة التحرير النسوية. ومعهن كل الحق في الارتياب من بيروقراطية بلدان ما بعد الرأسمالية مثل الاتحاد السوفيتي والذي لم ينفذ البرنامج الكامل لتحرر النساء. على أيّ حال؛ ستكتشف العديد منهن بمرور الوقت، وبعضهن قد اكتشف بالفعل أن برنامج ماركس وانجلز مستمرة إلى يومنا هذا في التنظيمات الثوري لاتحاد الشباب الاشتراكي وحزب العمال الاشتراكي.

في غضون ذلك، نجد أنه وفي سنة قصيرة واحدة فقط قامت حركة التحرير النسوية بقفزات عملاقة حتى أن السخرية السابقة والتنكيل بالنساء اللواتي انخرطن فيها تراجع وبدأ يختفي في بعض المجالات. بدلا عن ذلك تولد احترام متزايد لهذهِ الحركة، بل وحتى الأمل بين صفوف الرجال المتعاطفين معها، لإيمانهم بأن النضال من أجل تحرير النساء سيحررهم هم كذلك. وصوت هذا

التيار يتمثل في مقالة ريتشارد فارسون المعنونة «غضب النساء» والتي ظهرت في اماكن عديدة من بينها في مجلة Look في 16 ديسمبر 1969 وفيها:

«قد يترتب على ذلك الكثير من النتائج المذهلة» مشيراً إلى «أنسنة» الدور الذي لعبته المرأة في التاريخ «يمكن أن يكون له أثر صحياً على الرجل، إذ سيتحرر هو الآخر» ويستنتج:

> «ثورة النساء يمكن ان تؤدي إلى ثورة إنسانية أصيلة لن نرضى بعدها بأقل مما نستحق، ولن نسمح بأن يستمر استغلالنا وتضليلنا، ولن نسمح بالاستمرار بتلويث بيئتنا وتعريض أطفالنا للخطر، مستقبل لن نستمر فيه بمدارة الضحالة والرثاثة في علاقاتنا البشرية، لن نستمر فيه بتقبل الحرب والعنف باعتبارهما الحل النهائي للصراع البشري».

حقاً أن هذا النداء من أجل «الثورة الإنسانية» ليس سوى نداء للثورة الاشتراكية التي نذرنا لها أنفسنا في الحركة الماركسية بكل ما بوسعنا من وسائل. نحن نعلم أن النضال لتحرير المرأة لا يمكن أن يحقق حلاً ثورياً كهذا في معضلتنا الحالية بمفرده. تحتاج النساء للتعاون في صراع كشف الأوراق من أجل مجتمع أفضل، أن نجدهن في التمرد مع الرجال في الاعتصامات الطلابية، مع السود، ومع كل قطاعات الناس المضطهدين.

في الوقت ذاته، ومع اكتساب حركة التحرير ثقة أكبر وهي تخترق صفوف النساء العاملات، يمكن أن تعمل هذهِ الحركة كمحفز لكوامن الروح المعادية للرأسمالية في القوى العاملة. ومن تظافر الخبرات والنضالات، سيكون لشعار الماركسية القديمة الأصيلة قيمة مضافة «لا شيء عندنا لنخسره سوى أغلالنا، والعالم جائزتنا إن نجحنا».

النساء: طائفة، أم فئة،
أم جنس مضطهد؟

المراحل الجديدة في النضال من أجل تحرير المرأة هو اليوم على مستوى أيديولوجي أعلى من مستوى الحركة النسوية في القرن الماضي. العديد من المشاركات اليوم يحترمن التحليل الماركسي للرأسمالية ويشتركن بالرؤيا الكلاسيكية لأنجلز عن أصول اضطهاد المرأة، والذي حدث خلال تطور المجتمع الطبقي القائم على أساس العائلة والملكية الخاصة والدولة. [67]

ولكن لا يزال هناك سوء فهم كبير وتفسيرات خاطئة للمواقف الماركسية، الأمر الذي قاد بعض النساء اللواتي كن يعتبرن أنفسهن راديكاليات أو اشتراكيات إلى التنحي عن هذا الطريق، ليصبحن مشوشات المفاهيم. متأثرات بأسطورة أن النساء لطالما كن عاجزات بحكم طبيعة وظائفهن التناسلية، تميل هؤلاء النساء في تفسير جذور اضطهاد المرأة في جزء منه على الأقل إلى الاختلافات البيولوجية بين الجنسين. في حقيقة الأمر أسباب هذا الاضطهاد هي أسباب ذات طابع تاريخي واجتماعي حصراً.

تنظر البعض لتوصف النساء باعتبارهن فئة خاصة أو طبقة، مثل تلك التوصيفات لا تغترب عن الرؤى الماركسية فحسب، ولكنها تقود كذلك إلى استنتاجات خاطئة بأن العدو الأساسي للمرأة يتمثل في الرجل لا في النظام الرأسمالي. وأنا هنا أطعن في هذه الادعاءات.

النتائج التي توصل إليها المنهج الماركسي كانت حجر الأساس لتفسير نشأة انحطاط مكانة المرأة، ويمكن تلخيص تلك النتائج كالتالي:

أولاً: لم تكن النساء جنساً مضطهداً، أو جنساً «آخر» على الدوام. علم الانثروبولوجي أو دراسة ما قبل التاريخ يخبرنا بالنقيض من ذلك تماماً. في المجتمع البدائي والذي كان عصر التعاونية القبائلية كانت النساء تقف على قدم المساواة مع الرجال، معترف بهن وبحقوقهن.

ثانيا: أفول النساء تزامن مع تفكك كميونة القبائل الأمومية، واستبدالها بالمجتمع الطبقي وما رافقه من نظم من زواج أبويّ وملكية خاصة وسلطة الدولة.

العوامل الأساسية التي أحدثت هذا الانقلاب في الوضع الاجتماعي للمرأة تمثلت في الخروج عن اقتصاد جمع الطعام إلى أشكال أعلى من الانتاج القائم على الزراعة، وتربية الماشية والحرف الحضرية. تم استبدال التقسيم البدائي للعمل بين الجنسين بتقسيم اجتماعي أكثر تعقيداً للعمل. زيادة الكفاءة في العمل أنتجت فائض قيمة معتبر، مما أدى إلى التمايز أول الأمر، ومن ثم إلى انقسامات أكثر عمقاً بين مختلف شرائح المجتمع.

بفضل الدور الذي قام به الرجال في الزراعة على مساحات أكبر والري وفي البناء، إلى جانب تربية المواشي، استولى بعض الرجال على هذا الفائض من الثروة بالتدريج، بتسلسل هرمي ليعتبر ملكية خاصة لهم، وهذا بدوره احتاج إلى مؤسسة الزواج والعائلة لتثبيت الملكية القانونية والوراثة لملكية الرجل. وعبر الزواج الأحادي، أصبحت الزوجة تحت السيطرة الكاملة لزوجها، من أجل أن يكون مطمئناً إلى أبنائه الشرعيين ليرثوا ثروته.

ومع تولي الرجال معظم أنشطة الإنتاج الاجتماعي، مع صعود مؤسسة العائلة، أصبحت المرأة رهن المنزل لخدمة زوجها وأسرتها. ظهر جهاز الدولة إلى حيز الوجود لتحصين مؤسسات الملكية الخاصة وإضفاء الشرعية عليها وعلى السيطرة الذكورية والعائلة الأبوية والتي تم تقديسها فيما بعد من قبل الدين.

هذا باختصار المقاربة الماركسية لأصل اضطهاد المرأة، تبعية المرأة للرجل لم تحدث بفعل أيما نقص بايولوجي كجنس أنثوي. كان ذلك نتيجة للتغيرات الاجتماعية الثورية والتي حطمت المجتمع المساواتي الأمومي واستبدلته بالمجتمع الطبقي الأبويّ، والذي منذ ولادته كان موصوماً بأوجه عديدة من التمييز والتفاوت بضمنها اللامساواة بين الجنسين. نشأة هذا الشكل القمعي للتنظيم الاجتماعي هو المتسبب في الأفول التاريخي للنساء.

لكن هذا الأفول لا يمكن فهمه فهماً كاملاً، ولا يمكن التوصل إلى حل اجتماعي وسياسي لمسألة تحرير المرأة، دون رؤية ما حدث في الوقت ذاته للرجال. غالباً ما تُغفل حقيقة أن النظام الطبقي الأبويّ الذي حطم الأمومية والعلائق المشاعية للمجتمع قد حطم في الوقت ذاته التآخي الذكوري للرجال، أو الأخوة القبائلية بينهم. الإطاحة بمكانة المرأة سارت جنباً إلى جنب مع اخضاع الجماهير من الرجال الكادحين لصالح طبقة السادة من الرجال.

أهمية هذهِ التطورات يمكن رؤيتها بوضوح إذا ما فحصنا الصفات الأساسية للبنية القبائلية التي وصفها مورغان وأنجلز وآخرون كنظام «المشاعية البدائية» أن الكميونة القبائلية كانت بمثابة أخوية بين الرجال والنساء. اتحاد النساء كان جوهر الأمومية وطابعها التعاوني. عملت النساء سوياً كأخوات في مجتمع متآخ وبشكل تعاوني؛ تربية الأطفال كانت تشاركية، والأم لا تفرق بين أطفالها وأطفال أختها في القبيلة، والأطفال بدورهم يعتبرون كل الأخوات الكبار أمهات مشتركات لهم، وبكلمات أخرى كان الإنتاج التعاوني والتملك الجماعي متصلاً بالتربية التشاركية للأطفال.

النظير الذكري لذلك تمثل في تآخي الرجال، وقد حدث على نفس النمط التشاركي. كل قبيلة أو بطن من القبيلة يعتبر تآخياً للذكور والإناث فيما بينهم، هذا التآخي الأمومي-الأخوي للناضجين من كلا الجنسين لم يتم فيه إنتاج ضروريات الحياة معاً فحسب، بل أخذ على عاتقه إعالة الأطفال في المجتمع كذلك، ورعايتهم وحمايتهم بشكل تعاوني. خصائص التآخي الذكري والأنثوي شكلت «الكميونة البدائية».

لذا وقبل أن تظهر العائلة الأبوية إلى حيز الوجود، حيث أب واحد يقف على رأس العائلة، كانت وظيفة الأبوة وظيفة اجتماعية وليست بالوظيفة العائلية. علاوة على ذلك، الرجال الأوائل الذين أدوا وظيفة الأب لم يكونوا أزواجا أو شركاء جنسيين للمرأة، بل كان الأب هو أخ المرأة في القبيلة. لم يكن ذلك ببساطة لأن الأبوة البيولوجية لم تكن معروفة في المجتمع القديم؛ فهذه الحقيقة بالذات لم تكن لها أهمية تذكر في المجتمع القائم على العلاقات التعاونية في الإنتاج وتربية الاطفال.

مع أن ذلك يبدو غريباً للناس اليوم، لكونهم قد اعتادوا على الشكل العائلي الحديث في تربية الطفل، إلا أنه كان أمراً طبيعياً تماماً في ظل المشاعية البدائية أن يقوم أخ الأمّ «الخال» بأداء الوظيفة الأبوية لأبناء أخواته، وهو الدور الذي صار فيما بعد من نصيب الأب الفرد لأطفال زوجته.

أول تغيير في هذا النظام العشائري القائم على أساس الأخت وأخيها جاء من تزايد الميل للتزاوج الطويل أو العائلة الاقترانية كما يدعوها مورغان وأنجلز، ورغبة الأزواج في العيش سوياً في نفس المجتمع ونفس المنزل. إلا أن التساكن أو التعايش البسيط لم يكن ليغير بالضرورة العلاقات التعاونية القديمة أو الدور الانتاجي للنساء في المجتمع. التقسيم الجنسي للعمل الذي كان موجوداً سابقاً بين الأخوات والأخوة تحول بالتدريج إلى تقسيم جنسي للعمل بين الزوج والزوجة.

لكن مادامت العلاقات التعاونية لا تزال سائدة ومستمرة بالمشاركة في الانتاج الاجتماعي، فإن المساواة القديمة بين الجنسين ظلت قائمة إلى حد ما. استمر المجتمع بدعم العائلة الاقترانية، وقام كل فرد من هذه العوائل بمساهمتهم في النشاط الإنتاجي.

العائلة الاقترانية، والتي ظهرت في فجر النظام العائلي، تختلف اختلافاً جذرياً عن العائلة النووية في وقتنا هذا. في تنافسنا المحموم في ظل النظام الرأسمالي الذي لا يرحم، يتوجب على كل عائلة صغيرة أن تموت أو تنجو بجهدها الفردي. لا يمكن للعائلة أن تعتمد على المساعدة من مصادر خارجية، تعتمد الزوجة على زوجها، ويتطلع الأطفال إلى الوالدين من أجل إعالتهم، حتى لو كان العامل بالأجرة الذي يعتمدون عليه يعاني من البطالة أو المرض أو حتى الموت. ولكن في فترة العائلة الاقترانية لم يكن هناك نظام من قبيل «الاقتصاد العائلي» فالمجتمع يعتني بكل أفراده، ويهتم بتلبية حاجاتهم الأساسية من المهد إلى اللحد.

كان هذا هو الأساس المادي لاختفاء حالات الاضطهاد الاجتماعي والخصومات العائلية في الكميونة البدائية، والتي صارت أمراً اعتيادياً في أيامنا.

يقال ضمناً أو بصريح العبارة أحياناً أن الهيمنة الذكورية لطالما كانت موجودة، وأن النساء لطالما تمت معاملتهن بوحشية من قبل الرجال، وعلى النقيض من ذلك، يسود الاعتقاد أيضاً بأن العلاقات بين الجنسين في المجتمع الأمومي كانت مجرد شكل معاكس للمجتمع الموجود حالياً، حيث تهيمن النساء على الرجال. كلا المقترحين يجانبان الصواب، ولا تدعمهما الأدلة الأنثروبولوجية.

ليست غايتي تمجيد عصر الوحشية أو الدعوة الرومانسية للعودة إلى العصور الماضية «العصور الذهبية». فالاقتصاد القائم على الصيد وجمع الطعام هو أدنى مرحلة من التطور الانساني

قد كانت ظروفه المعاشية بدائية وقاسية وصعبة. مع ذلك فمن الضروري الاعتراف بأن العلاقات بين الذكور والإناث في هذا المجتمع مختلفة جوهرياً عن مجتمعنا.

في ظل نظام القبيلة ونظام التآخي لم يكن ممكناً لأحد الجنسين أن يسيطر على الجنس الآخر، ولا لطبقة ان تضطهد طبقة أخرى. احتلت النساء المكانة الأكثر تميزاً لأنهن كن المنتج الرئيسي لضرورات الحياة، فضلاً عن نسل الحياة الجديدة. ولكن ذلك لا يعني أن المرأة كانت تضطهد الرجل، فالمجتمع المشاعي البدائي ينبذ الطغيان الطبقي أو العرقي أو الجنسي.

وكما أشار أنجلز؛ مع صعود الملكية الخاصة والزواج الأحادي والعائلة الأبوية ظهرت قوى اجتماعية جديدة في كل من المجتمع والعائلة لتدمر حقوق النساء الأوائل، ومن التساكن البسيط لزوجين نشأ النظام القانوني المثبت بشكل صارم للزواج الأحادي. مما جعل الزوجة والأطفال خاضعين للسيطرة الكاملة للزوج والأب، والذي أعطى العائلة اسمه وحدد ظروف حياتهم ومصيرهم.

النساء اللائي عشن ذات مرة وعملن سوية كمجتمع من الأخوات وربين أطفالهن بشكل مشترك، أصبحت كل واحدة منهن اليوم زوجة لرجل فرد، تخدم سيدها ورب بيتها في بيت منفرد. التقسيم المساواتي القديم للعمل بين الرجال والنساء في الكميونة القبائلية افسحت الطريق لتقسيم العمل في الأسرة، وتم استبعاد النساء شيئاً فشيئاً من عجلة الانتاج الاجتماعي لخدمة الزوج والبيت والعائلة. لذا فإن المرأة من بعد أن كانت «راعية» للمجتمع تم تنحيتها عن دورها، والتقليل من شأنها في ظل التكوينات الطبقية لتصبح مربية لأطفال الرجل ورئيسة لخدمه.

هذا الحط من مكانة المرأة صار سمة دائمية من سمات المجتمع الطبقي بكل مراحله؛ من مرحلة الاستعباد إلى الاقطاعية وانتهاء بالرأسمالية. عندما كانت المرأة في مواضع القيادة والانتاج في المجتمع التشاركي كانت تنال التقدير والاحترام، لكن بمجرد تقطيع صلاتها بالمجتمع وبباقي النساء، لتعيش مهمشة في بيت منعزل حتى تدنت مكانتها في البيت والأسرة وتم استعبادها، وفقدت بذلك هيبتها ونفوذها وقوتها.

لذا أيكون من العجب أن تؤدي تغيرات اجتماعية هائلة كتلك إلى عداء وتوتر طويل الأمد بين الجنسين؟ يقول أنجلز:

«تاريخ الزواج الأحادي لا يمثل صلحاً بين للرجل والمرأة، وهو لا يزال أقل مرتبة من أن يكون أعلى أشكال التزاوج. بل على النقيض؛ يمثل الزواج الأحادي حالة إخضاع لأحد الجنسين على يد الجنس الآخر، مسبباً العداوة والبغضاء بين الجنسين بشكل لم يكن معروفاً فيما سبق من التاريخ. أول أشكال العداء بين الجنسين ظهوراً في التاريخ تزامن مع الزواج الأحادي، بسبب اضطهاد النساء من قبل الرجال».[68]

من الضروري هنا التمييز بين درجتين من الاضطهاد للمرأة في عائلة الزواج الأحادي في أطار نظام الملكية الخاصة. في العائلة المزارعة المنتجة قبل عصر الصناعة حازت النساء على مكانة اجتماعية عالية، وتلقت احتراماً أكبر من ذلك الذي تتلقاه النساء في العائلة الاستهلاكية في حياتنا المدنية، وفي العائلة النووية.

عندما كانت الزراعة والصناعات الحرفية تهيمن على الاقتصاد، كانت العائلة الزراعية والتي هي عائلة كبيرة أو «ممتدة»، وحدة انتاجية حيوية. لكل أعضائها وظائف حيوية يؤدونها وفقاً لجنسهم وأعمارهم. عملت المرأة في زراعة الأرض، وانخرطت في الصناعات المنزلية، بالإضافة إلى حمل الأطفال، بينما كان للأطفال وكبار السن حصة في الانتاج وفقا لقابلياتهم.

وقد تغير الحال مع صعود الرأسمالية الصناعية والاحتكارية والعائلة النووية. مع نزوح جماهير الرجال من الأرض والصناعات الصغيرة ليصبحوا عمالا بالأجرة في المصانع، لم يبق لديهم ما يبيعوه لأرباب المال الرأسماليين سوى قوتهم العاملة من أجل معيشتهم، وأُقصيت زوجات عمال الأجرة عن المزارع الانتاجية السابقة وأعمال الحرف المنزلية، وأصبحن تابعات بشكل كلي للزوج الذي يعيل المرأة وأطفالها، والذي صار بدوره تابعاً لرب عمله ومعتمداً عليه.

وهكذا مع تجريد المرأة من الاستقلالية الاقتصادية، سقطت إلى أدنى درجات التقدير الاجتماعي. في بداية نشأة المجتمع الطبقي، تم استبعاد المرأة من حركة الانتاج الاجتماعي والقيادة الاجتماعية لتعمل في مزرعة العائلة، تعمل مع زوجها في البيت والعائلة. لكن مع تشظي العائلة الزراعية المنتجة بواسطة العائلة النووية للحياة في المدنية الصناعية، تم طرد المرأة من آخر قاعدة لها.

أعطيت المرأة بديلين مجحفين؛ إما أن تبحث عن زوج يعيلها، وترتبط به كأي زوجة منفردة في الشقق والبيوت الحضرية لتربية الجيل القادم من العبيد بالأجرة، والبديل الثاني للبائسة سيئة الحظ تمثل في العمل على هامش المطاحن والمصانع. (مع أطفالها) حيث تشقى وتتعرق في أكثر الاقسام تدنياً، وبأقل الأجور في القوى العاملة.

على مدى الأجيال الماضية، ناضلت المرأة العاملة وقاتلت في معاركها الخاصة أو إلى جانب الرجال من أجل تحسين الأجور وظروف العمل. لكن المرأة التابعة اقتصادياً لم يكن لديها القدرة على الخوض في نضال اجتماعي مماثل. كان بوسع ربة البيت الالتجاء للشكوى أو المشاحنات مع الزوج والاطفال للتنفيس عن مآسي حياتها. أصبحت البغضاء بين الجنسين أعمق وأكثر حدة مع التبعية الاقتصادية البغيضة وخضوع المرأة للرجل.

على الرغم من التكريم المنافق الذي يشيد بمكانة المرأة باعتبارها «الأم المقدسة» وربة البيت المخلصة، إلا أن قيمة النساء غاصت إلى أدنى مستوى في ظل الرأسمالية. ولأن ربة البيت لا تساهم في انتاج السلع للسوق وانتاج فائض قيمة للمنتفعين، فهي لا قيمة لها في العمليات الرأسمالية. بقي لوجود المرأة ثلاثة أسباب لا غير؛ أولاً الإنجاب وثانياً حراسة البيت، أما المسوغ الثالث فتمثل في كونها المشتري للسلع الاستهلاكية للأسرة.

في حين أن المرأة الثرية تتمكن من استئجار خادمة للقيام بالأعمال المنزلية المملة بدلاً عنها، صار على النساء الفقيرات المكافحات أن يتعرضن للطحن بلا نهاية طوال الحياة. عندما تضطر المرأة الفقيرة للبحث عن عمل خارج المنزل للمساعدة في إعالة العائلة، تتضاعف المسؤوليات ويزداد إرهاقها. ليقع على عاتقها مسؤوليتين بدلاً عن مسؤولية واحدة، المرأة العاملة تتعرض للظلم والاضطهاد بشكل مضاعف.

حتى ربات البيوت من الطبقة المتوسطة في العالم الغربي، على الرغم من وضعهن الاقتصادي الأفضل، يقعن ضحية للرأسمالية. الظروف التوحدية الانعزالية المضنية لحياتهن تقودهن إلى «العيش من خلال أطفالهن» وهي علاقة تسبب العديد من المشاكل النفسية التي تؤثر على الحياة العائلية اليوم. في سعي المرأة لتهدئة الملل يمكن أن تصبح فريسة للمنتفعين في مجالات السلع الاستهلاكية. هذا الاستغلال للمرأة كمستهلكة جزء لا يتجزأ من نظام نشأ في المقام الأول لاستغلال الرجال كمنتجين.

لدى الرأسمالية أسبابها الكافية لتمجيد العائلة النووية. المنزل الصغير منجم ذهب لكل أنواع المتصيدين من سماسرة العقارات إلى مصانع المنظفات ومستحضرات التجميل. وكما يتم إنتاج السيارات للاستخدام الفردي عوضاً عن تطوير وسائل النقل الجماعي حتى تتمكن الشركات الكبرى من كسب المزيد من المال من خلالها ومن خلال بيع المنازل الصغيرة ليحتلها أشخاص لديهم غسالات فردية وثلاجات وأجهزة فردية مماثلة. يدر ذلك أرباحاً أعلى من بناء مساكن جماعية بإيجارات منخفضة وتطوير المرافق الخدمية الاجتماعية ومراكز رعاية الأطفال.

السبب الثاني لتمجيد العائلة النووية يتمثل في عزل النساء؛ عند جعل كل امرأة معزولة في بيت خاص ومقيدة إلى المطبخ ورعاية الأطفال، يعوق ذلك تكاتف النساء سوياً، لئلا يؤدي هذا التكاتف إلى إنتاج قوة اجتماعية أو خطراً سياسياً حقيقياً يهدد مستقبل النظام ومؤسساته.

الدرس الواضح والذي يمكن استخلاصه من هذهِ الدراسة الاستقصائية المكثفة للغاية عن السجن الطويل للنوع الأنثوي في البيت والعائلة في المجتمع الطبقي الحالي، والذي هو في تناقض واضح لمكانة الأنثى الأكثر استقلالية في المجتمع قبل الطبقي، يظهر أن حالة التدني للجنس الانثوي ليس نتاجاً للبيولوجيا وحمل الطفل. لم يكن حمل الطفل ليشكل إعاقة مطلقاً في المجتمع البدائي؛ لقد أصبح معيقاً في العائلة النووية في عصرنا فقط. تتمزق المرأة الفقيرة اليوم بسبب تضارب الالتزامات المتضاربة الملقاة على عاتقها من العناية بالطفل داخل البيت، والعمل في الوقت ذاته خارج المنزل للمساعدة في أعالة العائلة.

هكذا حكم على المرأة بمكانة متدنية بوضع قهري جلبته نفس القوى الاجتماعية التي تسببت باضطهاد طبقة لأخرى، وعرق لآخر، وأمة لأخرى. المجتمع الرأسمالي -المرحلة النهائية من مراحل تطور المجتمع الطبقي - هو المصدر الأساسي لانحطاط مكانة النساء واضطهادها.

بعض النساء في حركة التحرير يرفضن هذهِ المبادئ الأساسية للماركسية. تقول هؤلاء أن الجنس الأنثوي يمثل فئة مختلفة أو طبقة منفصلة تي غريس أتكينسون على سبيل المثال، تتخذ موقفاً مفاده أن النساء طبقة منفصلة، وتقول روكسانا دنبار أنهن فئة مستقلة؛ دعونا نفحص هذان الموقفان النظريان والاستنتاجات التي تنتج عنهما.

أولاً: هل النساء فئة اجتماعية؟ التقسيم الهرمي على هيئة فئات اجتماعية كان النموذج الأول للتمايز في التاريخ، وكان سابقاً للنظام الرأسمالي وقد ازدهر بعد تفكك الكميونة القبائلية مع ظهور أول أشكال التمييز بين أبناء المجتمع وفقاً للتقسيم الجديد للعمل والوظائف الاجتماعية. وصارت عضوية الفئة الاجتماعية تحدد للفرد مع الولادة.

من المهم ملاحظة أن نظام الفئات الاجتماعية كان نظاماً طبقياً أصيلاً منذ منشأه، علاوة على ذلك، بينما وصل هذا النظام إلى اقصى تطوره في مناطق محددة فقط من العالم مثل الهند، فان النظام الرأسمالي تطور إلى ما هو ابعد من لك ليصبح نظاماً عالمياً، ليجتاح حتى نظام الفئات.

يمكن رؤية ذلك بوضوح في الهند نفسها، حيث الفئات الرئيسية الأربعة هي: البراهمة أو الكهنة، الجنود، والمزارعين والتجار والعمال. إضافة إلى من هم خارج الطائفة «المنبوذين» كان لكل شخص مكانة ثابتة في مجتمع استغلالي. أما في الهند اليوم فقد تحللت العلاقات في نظام الفئات القديم، وتسود اليوم العلاقات الرأسمالية على جميع أشكال العلاقات المتوارثة وبضمنها نظام الفئات الاجتماعية.

ومع ذلك، فأن مناطق العالم التي تقدمت أسرع وأبعد على طريق الحضارة تجاوزت نظام الفئات الاجتماعية. الحضارة الغربية والتي بدأت في اليونان القديمة وفي روما تطورت من العبودية إلى الاقطاعية إلى المرحلة الأحدث للمجتمع الطبقي إلا وهي الرأسمالية.

لا في نظام الفئات أو الطوائف ولا في النظام الطبقي، ولا حتى في حالات الاندماج بينهما اعتبرت النساء كطائفة أو طبقة منفصلة، النساء أنفسهن كن منفصلات إلى طبقات مختلفة وطوائف في هذه التشكيلات الاجتماعية.

حقيقة أن النساء احتللن مكانة دنيا كجنس لا يعني أن النساء انتظمن في طائفة أو فئة اجتماعية أو طبقة، حتى في الهند القديمة انتمت النساء لطوائف متعددة مثلما ينتمين لطوائف مختلفة في المجتمع الرأسمالي المعاصر. مكانة المرأة الاجتماعية محددة بالولادة في فئة محددة، ولا تتغير إلا في حالات خاصة مع مكانة زوجها وثروته، وهو أمر ينطبق على المرأة والرجل كذلك. أي فرد من أي جنس يمكن أن يولد من طائفة متدينة، أو أن يولد لطائفة عليا، بثروة كبيرة، وقوة ومكانة اجتماعية.

لذا ما الذي تريد روكسانا دنبار قوله حين تشير إلى كون كل النساء بغض النظر عن طبقتهن الاجتماعية هن طائفة منفصلة؟ وما هي العواقب المترتبة على هذا الوصف؟ المغزى الدقيق لافتراضاتها ونتائجها ليس واضحاً بالنسبة لي، وربما للكثيرين غيري، لذلك فأن الأمر بحاجة لتمحيص أكثر.

الحديث بطريقة فضفاضة وشعبية للإشارة للنساء على أنهن «فئة» متدنية -كما يحدث حينما يوصفن أحياناً كعبيد أو خادمات- بينما القصد هو بالكاد الاشارة إلى كونهن يحتللن الهامش في المجتمع المهيمن عليه الذكور. استخدام مصطلح «فئة» لن يؤدي إلا لإفقار لغتنا، والتي لا توجد فيها كلمة خاصة للإشارة للنوع الانثوي كجنس مضطهد. لكن للأمر جوانب أخرى إذا ما حكمنا على ورقة روكسانا دنبار المؤرخة في شباط فبراير 1970 والتي تشرح فيه موقفها السابق بخصوص هذهِ المسألة.

في هذا الملف تقول إن وصفها للمرأة على اعتبار أنها فئة مضطهدة ليس بالأمر الجديد؛ فالمرأة ليست إلا في أدنى حالات الوجود. وتزعم أن ماركس وأنجلز قاما بالمثل «بوصف مكانة الجنس الانثوي بنفس الطريقة» هذا ببساطة خطأ، لم يحدث ذلك لا من قبل ماركس في كتابه رأس المال، ولا من قبل أنجلز في كتاب أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة، ولا في أيّ كتابة من كتابات الماركسيين المميزين في هذا الموضوع من لينين إلى لوكسمبورغ. وصف النساء كفئة أو طائفة بناء على جنسها فقط، ليس سوى مراوغة لفظية وسوء استخدام للمصطلح، ليس هذا من الماركسية في شيء، حتى ولو قدم باسم الماركسية.

أود الحصول على توضيح من روكسانا دنبار حول الاستنتاجات التي استخلصتها من نظريتها. لو أن كل النساء ينتمين لطائفة متدنية وكل الرجال ينتمون لطائفة أعلى، سيترتب على ذلك تحول النضال في سبيل تحرير المرأة إلى حرب طوائف مستمرة بين جميع النساء ضد جميع الرجال. هذا الاستنتاج يؤكده تصريحها بأننا نعيش في ظل نظام طوائف عالمي.

هذا التأكيد ليس ماركسياً كذلك. ما يقوله الماركسيون هو أننا نعيش في ظل نظام طبقي عالمي، وهم يصرحون فوق ذلك بالحاجة إلى نضال طبقي لا حرب طوائف -لكل المضطهدين من رجال ونساء على حد سواء- من اجل تحقيق تحرير المرأة وتحرير كل الجماهير المضطهدة أيضاً. هل تتفق روكسانا أم تختلف مع وجهة النظر هذه عن الدور الرئيسي للصراع الطبقي؟

تشوشها يشير إلى ضرورة استخدام لغة دقيقة عند العرض العلمي. النساء المضطهدات في ظل الرأسمالية لسن عبيداً أكثر من عبيد عصر الاقطاعية ولا هن بأدنى منهم. الفئات الاجتماعية من عبودية وسخرة ونظام طوائف تسميات تشير إلى مراحل التاريخ السابقة ولا يصلح استخدامها لوصف موقع المرأة في مجتمعنا المعاصر.

بالانتقال إلى الموقف الآخر. ليس صحيحاً كذلك تشخيص النساء على انهن «طبقة» خاصة. في علم الاجتماع الماركسي يتم تعريف الطبقة بطريقتين متداخلتين؛ من خلال الدور الذي تلعبه في عمليات الانتاج وحصتها في الملكية. لذا فأن الرأسماليين هم القوة الرئيسية في مجتمعنا لأنهم يمتلكون وسائل الإنتاج، وهم بالتالي يسيطرون على الدولة ويوجهون الاقتصاد. العمال بالأجرة يصنعون الثروة، ولا يملكون شيئاً سوى قوتهم العاملة والتي يتعين عليهم بيعها لرؤسائهم للبقاء على قيد الحياة.

أين تقف النساء بالنسبة لقوى الطبقات المستقطبة؟ أنهن ينتمين لكل مكونات الهرم الاجتماعي. قلة في القمة في الطبقة البلوتوقراطية (الثرية) ونساء أكثر بين الطبقة الوسطى والغالبية من الطبقة البروليتارية من السكان. تنوع هائل بين الطبقات التي تنتمي لها النساء من قلة من النساء الغنيات في عوائل روكفلر ومورغان وفورد وملايين النساء الفقيرات اللواتي يعشن على الإعانة. بالمختصر، النساء مثلهن مثل الرجال هن جنس موزع على طبقات متنوعة.

هذه ليست محاولة لتقسيم النساء وتشظيتهن، لكن الأمر يتعلق بالاعتراف بالانقسامات الفعلية الموجود. فكرة أن النساء كجنس لديهن الكثير من الامور المشتركة أكثر من أعضاء نفس الطبقة فكرة خاطئة. نساء الطبقة العليا لسن ببساطة رفيقات فراش للأزواج الأغنياء، وكقاعدة عامة فبينها وبين زوجها الكثير من المشتركات والروابط، هما رفيقين في الاقتصاد والمجتمع والسياسة، يتعاضدان للدفاع عن الملكية الخاصة والنفعية والعسكرة والعنصرية العرقية واستغلال النساء الاخريات.

من المؤكد وجود استثناءات فردية لهذه القاعدة، ولا سيما بين النساء الشابات اليوم. نحن نتذكر أن السيدة فرانك ليزلي على سبيل المثال، تركت مليوني دولار لدعم قضية النساء في قضية حق التصويت، ونساء أخريات من الطبقة العليا كرسن كل طاقتهن لضمان الحقوق المدنية لجنسنا، لكنها مسألة أخرى تماماً أن تتوقع دعم الكثير من نساء الطبقة العليا للنضال الثوري، والذي يهدد

مصالحهن الرأسمالية والامتيازات. تسخر معظمهن من حركة التحرير بالقول صراحة أو ضمناً: «ما الذي نحتاج للتحرر منه؟»

هل من الضروري فعلاً التركيز على هذه النقطة؟ عشرات الآلاف من النساء ذهبن إلى واشنطن في المظاهرات المناهضة للحرب في تشرين الثاني/نوفمبر 1969، ومجدداً في مايو 1970، ألم يكن لدى هؤلاء النساء قواسم مشتركة مع الرجال المناضلين بجوارهن في مسائل الحياة والموت، أكثر مما لديهن مع السيدة نيكسون وابنتها، وزوجة المدعي العام السيدة ميتشل والتي أطلت بالكاد من نافذتها بعدم ارتياح، لترى شبح ثورة روسية أخرى في احتجاجات هؤلاء الجماهير؟ هل أن زوجات المصرفيين والجنرالات ومحامي الشركات والمصانع الكبرى أقرب للنساء اللواتي يصارعن من أجل التحرر من رجال الطبقة العاملة من البيض والسود، واللذين يحاربون من اجل حقوقهم؟ ألن يكون كلا الرجال والنساء على الطرفين في الصراع الطبقي؟ وإلا فإن النضال سيكون موجهاً ضد الرجال كجنس بدلا عن أن يكن ضد النظام الرأسمالي.

صحيح أن كل أشكال المجتمعات الطبقية يهيمن عليها رجال تم تدريبهم من المهد على الشوفينية. لكن ليس صحيحاً أن الرجال هم العدو الاساسي للمرأة. هذا إلغاء لجموع الرجال الذين تم اضطهادهم واستغلالهم هم أنفسهم من قبل العدو الأساسي للمرأة، وهو النظام الرأسمالي. وبالمثل فإن لهؤلاء الرجال مصلحة في النضال التحرري للنساء، وبوسعهم أن يكونوا حلفائنا.

مع أن النضال ضد الشوفينية الذكورية هو جزء جوهريّ من مهام النساء في حركة التحرير، إلا أنه لا يجب أن يكون محور الحركة، لا يجب دعم هذا الميل للتستر أو تجاهل دور القوى الحاكمة والتي لا تنتج كلَّ أشكال التفريق والاضطهاد وتستفيد منها فقط، لكنها كذلك مسؤولة عن انتاج الشوفينية الذكورية وتدعيم أسسها وإدامتها. دعونا نتذكر أن التفوق الذكري لم يوجد في الكوميونة البدائية، والتي تأسست على التآخي والتكافل. أن العنصرية الجنسية لا تفرق عن العنصرية العرقية؛ كلاهما نشأت جذوره وامتدت في نظام الملكية الخاصة.

أن الموقف النظري المغلوط يؤدي ببساطة إلى استراتيجية مغلوطة في النضال من أجل تحرر المرأة. مثل الحالة مع مجموعة الريد ستكونغ[69] التي صرحت في بيانها أن النساء «طبقة مضطهدة».

لو تم اعتبار كلّ النساء بوصفهن طبقة في المجتمع، فهل يعني ذلكَ أن كل الرجال ينبغي أن يكونوا ضمن الطبقة المضادة الظالمة؟ ما الذي يمكن استنتاجه من مثل هذا الرأي؟ ألا يوجد رجال يتعرضون للاضطهاد؟ ماذا عن الملايين من العمال المضطهدين من البيض والسود والشيكانو[70] والأقليات الأخرى الذين يتم استغلالهم من قبل الاحتكاريين؟ ألا يكون لهم موقعاً مركزياً في النضال من أجل الثورة الاجتماعية؟ كيف يمكن بعدها أن يجتمع هؤلاء الناس من شعوب وأجناس مختلفة تتعرض للقهر كل يوم للعمل سوية ضد عدوهم المشترك؟ توصيف النساء كطبقة في مواجهة طبقة من الرجال لا يمكن أن يؤدي إلا لتشتيت الصراع الطبقي الفعلي.

ماذا عن تأكيد روكسانا دنبار في نفس الاتجاه بأن تحرير الإناث هو أساس الثورة الاجتماعية؟ هذا الكلام أبعد ما يكون عن الاستراتيجية الماركسية، لأنه خلط للأوراق. يقول الماركسيون أن الثورة الاجتماعية هي الأساس للتحرر الانثوي الكامل، كما أنها هي الأساس لتحرير الطبقة العاملة بأكملها. كل قوة لديها أسبابها للكفاح ضد قيود الإمبريالية وأغلالها تمثل حليفاً حقيقياً لتحرير المرأة.

المصدر الأول لقهر المرأة هو الرأسمالية، ولا يمكن للنساء وحدهن أن يهدمن أسس هذا النظام حتى من خلال ائتلاف النساء واجتماعهن سوياً من جميع الطبقات. سيتطلب الأمر كفاحاً عالمياً من قبل الجماهير العاملة من الذكور والإناث على حد سواء، جنباً إلى جنب مع كل شريحة تعرضت للقهر والاضطهاد للإطاحة بالقوى الرأسمالية والتي تمركزت اليوم في الولايات المتحدة.

وفي الختام، يتحتم أن نسأل ما هي الصلات بين النضال من أجل تحرير المرأة والنضال من أجل الاشتراكية؟

أولاً: رغم أن الهدف الكامل لتحرير المرأة لا يمكن أن يتم تحقيقه إلا بعد الثورة الاشتراكية، لكنّ هذا لا يعني أن النضال لتأمين الإصلاحات يجب تأجيله حتى ذلك الحين. يلزم أن تكافح النساء الماركسيات جنبا إلى جنب مع كل أخواتنا المشتركات في عمل تنظيمي لتحقيق أهداف محددة. كانت هذهِ سياستنا منذ بدء الموجة الجديدة من حركة تحرير المرأة والتي نشأت منذ عام أو نحو ذلك. وحتى من قبل هذا التاريخ.

الحركات النسائية، بدأت مثلها مثل كل الحركات التحررية الأخرى بطرح المطالب الأولية، مثل تكافؤ الفرص مع الرجل في التعليم والأعمال وتساوي الأجور في العمل المتساوي، حق الإجهاض عند الحاجة، ومجانية مراكز الرعاية للأطفال بتمويل حكومي ولكن إدارة مجتمعية. تعبئة النساء لهذه القضايا لا يعطينا إمكانية تأمين بعض التحسينات فحسب، بل يكشف عن أسوء جوانب الاضطهاد في المجتمع، ويكبحها ويصلحها.

ثانياً: لماذا يتعين على المرأة تحرير نفسها بنفسها، رغم أنه ومن أجل وضع نهاية للرأسمالية سيتوجب تظافر جهود كل الطبقة العاملة لإحداث الثورة الاشتراكية؟ السبب في ذلك أن ما من مجموعة تعرضت للقهر سواء أكانوا أناساً من العالم الثالث، أو من النساء أن تفوض شأن تحريرها للقوى الأخرى، حتى وأن كانت تلك قوى متحالفة، نحن نرفض موقف بعض التوجهات السياسية التي تزعم تبني الماركسية، ثم ترفض الاعتراف بأن المرأة قادت وتقود نضالها المستقل للتحرر بنفسها، وليس بوسعهم بالمثل فهم أن على السود أن يفعلوا الشيء ذاته.

شعار الثورة الأيرلندية «على من يريد الحرية، أن يوجه الضربة بنفسه» شعار ينطبق بشكل كامل على قضية تحرير المرأة. يجب على المرأة نفسها أن توجه الضربات وتحارب للحصول على حريتها. وهذا ينطبق على ما قبل وبعد الثورة المناهضة للرأسمالية.

في سياق نضالنا، وكجزء منه، سوف نقوم بإعادة تثقيف الرجال الذين تم غسل أدمغتهم ليصدقوا بأن المرأة جنس أدنى بطبيعة الحال، وذلك نتيجة لبعض العيوب في تركيبتهن البيولوجية. سيُدرك الرجال أن الشوفينية والهيمنة الذكورية المتوارثة أنما هي صنيعة الرأسمالية، وهي محض سلاح آخر بين أيدي طبقة السادة، من أجل الحفاظ على قاعدة حكمهم. العامل المقهور الذي يواجه محنة زوجة تابعة اقتصادياً، تعتمد عليه بالكامل ولا تستطيع إعالة نفسها، لا يمكن أن يرضى بذلك، يجب أن يفهم أن السبب في ذلك وجود القوى التي تريد الحط من مكانتيهما معاً.

وأخيراً: فإن القول بأن النساء من فئة اجتماعية أو طبقة منفصلة، أو طائفة يقود إلى استنتاجات معتمة للغاية عن المشاحنات بين الجنسين، وهذا مناقض للتفاؤل الثوري للماركسية، هذا القول سيجعل الرجال والنساء في حرب مضنية ضد بعضهم إلى الأبد ما لم يتم فصل الجنسين بالكامل، أو تصفية جنس بالكامل.

كماركسيين لدينا رسالة أكثر أملا وواقعية؛ نحن نستنكر أن يكون تدني مكانة المرأة مقدراً سلفاً بفضل تشكيلتهن البيولوجية، أو أن المرأة لطالما كانت خاضعة مستعبدة. لم يمض على إخضاع المراءة والعداء المرير بين الجنسين سوى بضعة آلاف سنة، نتيجة التغيرات الاجتماعية الهائلة، والتي جاءت بالعائلة والملكية الخاصة والدولة إلى حيز الوجود.

هذهِ النظرة للتاريخ تؤكد على ضرورة ولادة ثورة على العلاقات الاجتماعية-الاقتصادية لاجتثاث أسباب اللامساواة وتحقيق الانعتاق الكامل لجنسنا. هذا هو الغرض من البرنامج الاشتراكي، وهذا هو مسعانا الذي نحارب لأجله.

مواد التجميل والموضة
واضطهاد النساء

حركة التحرير النسائية اليوم مشغولة بنقاش العديد من المسائل التي سبق أن تمت إثارتها منذ بداية الخمسينات. من بينها موضوع مواد التجميل، وبعض من «مساعدات الجمال» والموضة كذلك. وقد جرت مناقشة من هذا القبيل في حزب العمال الاشتراكي في العام 1954.[71]

شعرت بعض النساء أن مواد التجميل والأزياء كانت ضرورية لتحسين مظهر المرأة، لذا اعتبر موضوع استخدامها حقاً من الحقوق. لكن أخريات شعرن بأنه وبينما يتعين أن يكون لكل امرأة حق اللبس مثلما تحب واستخدام مواد التجميل كما ترغب، فأنها في الحقيقة لا تمتلك خياراً فعلياً، إذ تخضع المرأة لضغط اجتماعي يجبرها على اتباع الموضة. النساء في هذا المجتمع الرأسمالي القاسي مجبرات في واقع الأمر على وضع مواد التجميل، وارتداء آخر الموضات. وقد تم استغلال النساء كأدوات جنسية لصالح مصانع مواد التجميل ودور الموضة في صناعة تأسست في المقام الأول من أجل الملايين من الأرباح، لا العناية بجمال المرأة فعلاً. فيما يلي مساهمة الكاتبة في هذهِ المناقشة.

يتم تداول أسطورة تقول بأن كل النساء يرغبن بأن يكن جميلات، وأن لديهن جميعاً نفس الاهتمام بمواد التجميل والموضة، باعتبارهما جزء لا يتجزأ عن السعي إلى الجمال. لتسويغ هذه الأسطورة تم الادعاء بأن موضات الجمال انتشر في كل فترات التاريخ ولدى نساء كل الطبقات. ويشير دعاة الموضة إلى حقيقة أن نساء المجتمعات البدائية يلوّن أجسادهن ويتخذنها زينة. لدحض هذهِ الخرافة، علينا أن نراجع باختصار تاريخ مواد التجميل والموضة.

المنافسة الجنسية لم توجد في المجتمع البدائي، لم تكن من حاجة لوجود مواد التجميل والموضة كمساعدات صناعية للجمال. رجال ونساء تلك المجتمعات كانوا يقومون بتلوين أجسادهم وتزيينها، ولكن ليس من أجل الجمال. لقد نشأت هذهِ العادات من مجموعة مختلفة من الحاجات المرتبطة بالحياة البدائية والعمل.

في ذلك الوقت تعين على كل شخص ينتمي إلى مجموعة قرابة معينة، أن يكون له «علامة» ليتم تميزه، كما يتم تمييز جنسه وعمره. لم تتضمن تلك العلامات تلوين الجسد ووضع الحلقات والأساور وارتداء التنانير القصيرة وما إلى ذلك فحسب، لكنها شملت الجرح والقطع والوشم وأنواع مختلفة من تلوين الجسد. تلك العلامات لم تحدد جنس كل فرد فقط، لكنها ميزت تغير العمر، وعمل الفرد في المجتمع من الطفولة حتى الشيخوخة. لم تكن تلكَ الوسوم «ديكورات أو تزويق» لقد نظر إليها المجتمع البدائي بوصفها تأريخاً لحياة كل فرد في المجتمع، مثلما نقوم في مجتمعاتنا بحفظ هذا التاريخ في البوم العائلة. وبما أن المجتمع البدائي كان مجتمعاً مساواتياً، فإن تلك العلامات ضمنت المساواة الاجتماعية الكاملة كذلك.

ثم جاء المجتمع الطبقي. العلامات التي كانت لها دلالات عديدة من ضمنها المساواة في المجتمع البدائي تحولت إلى العكس تماماً. لقد أصبحت الأزياء والزينة علامة على اللامساواة الاجتماعية وتعبير عن الانقسام في المجتمع، إلى أغنياء وفقراء، إلى حكام وخاضعين. مواد التجميل والموضة صارت امتيازاً ارستقراطياً.

مثال جيد على ذلك يمكن رؤيته في البلاط الفرنسي قبل الثورة الفرنسية. الملوك والأمراء وملاك الأراضي من الرجال والنساء كانوا جميعهم يرتدون الموضة بأرقى أشكالها. كانوا يتأنقون بتلوين الوجه وتزيين الشعر بملابسهم المزودة بكشاكش الدانتيلا والحليّ الذهبية وما إلى ذلك، كلا الجنسين كانا يسعيان للجمال وفقاً لمعايير ذلك الوقت. لكن أزياء كلا الجنسين في الطبقة الحاكمة كانت ترسم وبشكل قاطع الحدود الفاصلة بينهم وبين الفقراء المعدمين اللذين تصببوا عرقاً من أجل صناعتها، والذين كانوا وفق نفس المعايير «يفتقرون للجمال العصري». كانت الموضة في ذلك العصر «علامة» التمايز الطبقي، يتبناها كل من ينتمي إلى الطبقة المتنعمة من أي جنس كان في مواجهة الطبقة العاملة من أي جنس.

ثم حلت العادات البرجوازية محل الممارسات الإقطاعية لأسباب تاريخية معينة، فترك الرجال حقل التجمل مبدئياً للنساء. علّم رجال الأعمال الكبراء على مكانتهم الطبقية من خلال أزياء زوجاتهم، وعبر الطرق الأخرى، وتخلوا عن ارتداء البناطيل المطرزة بخيوط الذهب وكشاكش الدانتيلا. لكن الموضة استمر وجودها بين النساء للتفريق في المكانة الاجتماعية.

تطورت الرأسمالية، ونتج عنها توسع ضخم لآلة الإنتاج، مما تطلب وجود أسواق جماهيرية ضخمة. ولإن النساء مثلن نصف السكان بدأ الباحثون عن الربح في حقل التجميل النسائي باستغلالهن. ومع توسع حقل الموضة بالتدريج لم تعد تقتصر على الأثرياء وحدهم وفرضت الموضة سلطانها على كل الإناث.

لتلبية حاجات هذا القاطع من الأعمال الكبيرة، تم إخفاء التمييز الطبقي وحجبه خلف ستار الهوية الجنسية. بدأ وكلاء الإعلان المأجورين بنشر البروباغندا القائلة بأن «كل النساء يرغبن بأن يكن جميلات، لذا فإن كل النساء لهن نفس الذوق في الجمال والموضة. أصبحت مجاراة صرعات الموضة مساوية للجمال، باعوا للمرأة كل ما «تحتاجه» و«ترغب بهِ» من مساعدات الجمال الممكن شراؤها.

أما اليوم فأرباح كل قسم في حقل الجمال يصل إلى مليارات الدولارات؛ مستحضرات التجميل، والأزياء وتقليعات الشعر وصالونات التجميل والمجوهرات المزيفة والحقيقية وما إلى ذلك. كل ما على رجال الأعمال فعله ليصبحوا أغنياء أن يبتكروا مادة تجميل جديدة، وإقناع النساء أنهن بحاجة لهذهِ المادة وأن كلّ امرأة ترغب بها بشدة. انظر إلى أيّ دعاية من دعايات ريفلون.[72]

من أجل الحفاظ على هذا التدفق المالي الكبير، صار من الضروري نشر أساطير اخرى عبر وسائل البروباغندا المتاحة لأصحاب الأموال، وكانت تلك الأساطير على النحو التالي:

1- تتنافس النساء منذ الأزل مع النساء الأخريات من أجل لفت الانتباه الجنسي للرجال. ومن الواضح أن هذهِ قوانين الطبيعة التي لا مفر منها. وبما أنها وجدت في كل زمن، يجب على النساء الاستسلام لما قدر عليهن، والاستمرار في التنافس إلى الأبد في سوق الجنس الرأسمالي.

2- في المجتمع الحديث لا مكان للجمال الطبيعي للمرأة. بل يتم التلميح في الواقع لعدم وجود الجمال الطبيعي لأن الطبيعة قد حرمت الجنس الأنثوي من ميزة الجمال الطبيعي. ومن أجل

التعويض عن وحدتهن الطبيعية والاختلال في مظهرهن، من الضروري الالتجاء للمواد التجميل، والتي وضعها النفعيون في متناول أيديهن. دعونا نفحص هذهِ البروباغاندا عن قرب.

التنافس الجنسي: أمر طبيعي أم اجتماعي

دراسة علوم البايولوجي والأنثروبولوجي تكشف أن ما من وجود للتنافس الجنسي بين الإناث. لا في الطبيعة ولا في المجتمع البدائي. المنافسة الجنسية سمة حصرية للمجتمع الطبقي، ولم تُعرف قبله، أي لمدة تقارب المليون سنة من تطور البشر.

لا يوجد في العالم الحيواني شيء من قبيل التنافس الجنسي بين الإناث من أجل لفت انتباه الذكور. المنافسة الجنسية الوحيدة الموجودة في العالم الحيواني والمفروضة من قبل الطبيعة، هي المنافسة الجنسية بين الذكور حيث الصراع من أجل الوصول إلى الإناث. تلك ببساطة طريقة الطبيعة لضمان استمرار الانواع. لكن بسبب الآثار التخريبية على التعاون المدني، فإن سمة التنافس الجنسي بين الذكور تم القضاء عليها خلال بناء وتعزيز أول تنظيم اجتماعي، والذي كان نظاماً من «الشيوعية البدائية».

غياب التنافس الجنسي بين الإناث؛ كان أحد الأسباب التي جعلت النساء قادرات على إنشاء هذا النظام الاجتماعي الأصيل. وقد خلق التنظيم الاجتماعي لتلبية حاجة المرأة كان بلا أي نوع من التنافس على الإطلاق. غياب التنافسية الجنسية أو الغيرة بين النساء البدائيات أمر لا شك فيه، حتى من قبل الأنثروبولوجيين المحافظين، على الرغم من أنهم نظروا إلى المسألة بدهشة في الغالب، كما لو كان هذا الغياب لغزاً بربرياً أو عادة غريبة.

ثم جاء المجتمع الطبقي القائم على الروح التنافسية الشرسة والحط من شأن المرأة لتكون تابعة للرجل ومعتمدة عليه. مع الصراع التنافسي على الملكية والثروة بين الرجال، نشأ الصراع التنافسي بين النساء من أجل الزواج بالرجل الأكثر قوة وثراء، لكن هذهِ التنافسية الجنسية مفروضة اجتماعياً على النساء، وليست نتاج الطبيعة. المسألة غير طبيعية «مفتعلة- مُصنعة»، صنيعة الظروف والتاريخ.

نشأ التنافس الجنسي بين النساء مع ظهور «سوق» الجنس أو الزواج. سوق الجنس هو جزء من سوق السلع الكلي والذي هو أساس المجتمع الطبقي الرأسمالي. مع تقديم الجنس كسلعة تحولت معايير الجمال لدى النساء بالتدريج من الجمال الطبيعي إلى المصطنع أو موضات التجميل. هذهِ العملية وصلت ذروتها في المجتمع المعاصر.

في الفترات القديمة من عملية مقايضة السلع تمت مقايضة النساء بالماشية والماشية بالنساء؛ الجمال الطبيعي وصحة المرأة كانت في مقدمة الصفات المرغوبة عند المقايضة، تماماً مثلما كانت صحة الماشية وحسن مظهرها ميزة عند الشراء، حيث أن أفضل العينات وأكثرها صحة تكون أكثر قدرة على القيام بالوظائف المطلوبة.

ثم مع ترسخ سلطة النظام الأبويّ والمجتمع الطبقي صارَ الرجال الأغنياء يكدسون النساء كأي شكل آخر من أشكال الملكية. نشأت عادة تزيين وتزويق تلك الزوجات والمحظيات بنفس طريقة تزيين وزخرفة القصور وللأسباب ذاتها. وصل هذا إلى قمته في القصور الآسيوية والحريم كملكية خاصة للأمير أو الخان، والذي كلما أمتلك من أدوات الترف والترفيه تلك أكثر كلما كان ذلك دليلاً على موقعه كعاهل غنيّ. في هذهِ المرحلة من التنافس الجنسي خيم على النساء ظل التنافس بين الرجال على تجميع الملكية. النساء أنفسهن كن «متاعاً» أو سلعاً.

عندما استبدل الزواج الاحادي الزواج المتعدد، أصبحت الاعتبارات التملكية أساساً للزواج، المرأة الغنية كان لها الحظوة على المرأة المعدمة في التنافس الجنسي. الوريثة الغنية بغض النظر عن جمالها وصحتها، كانت مرغوبة للزواج من قبل أي رجل يسعى لزيادة متاعه وممتلكاته والعكس صحيح. سيفضل الرجل فيم لو كان له الخيار المرأة الأكثر جمالاً بالطبع، لكن الاعتبارات التملكية تأتي أولاً في العادة. الزيجات التي تنضوي على دمج الممتلكات تُعقد بطريقة تُشبه طريقة إنجاز الأعمال التجارية بين الأسر، ولا تكترث إلا عرضاً لمسألة أماني ورغبات الأفراد المعنيين. هذا النوع من الزواج كان يتم اجراءه خلال المفاوضات العائلية أو عبر وسيط، وبقي ساري المفعول عموماً خلال الفترة الزراعية الطويلة، عندما الملكية ملكية الأرض في المقام الأول.

ثم جاءت الرأسمالية، والصلات المالية و«الأعمال الحرة». الأعمال الحرة لم تقتصر على التنافس في العمل فقط، لكنها انسحبت كذلك لتشمل التنافس الجنسي بين النساء. استمر الزواج بين الأغنياء كشكل من اشكال دمج الملكية، بحيث لا يمكن التمييز غالباً بين الاثنين. في الواقع، مع

صعود الرأسمالية الاحتكارية، انتجت عملية دمج الممتلكات تلك إلى تضييق نطاق طبقة البلوتقراط لتصبح ستين عائلة فقط في الولايات المتحدة.

لكن أمريكا، والتي كانت بالذات برجوازية من الولادة تقريباً، لها خصوصية متفردة، إذ يمكن تجاوز المسألة الطبقية بوجود المال على العكس من أوربا الاقطاعية، فالفروق الطبقية كانت تتأسس هناك منذ الولادة.. لذا يمكن لعامل أو رجل من الطبقة الوسطى أن يحالفه الحظ مكدساً المال ليصبح غنياً، وتتغير بالتالي مكانته الطبقية.

ينطبق الأمر على النساء كذلك، إذ يمكن للصدفة أو لجمال المرأة أن يجعلاها تقترن بمليونير ويتغير حالها الطبقي. هذه هي النسخة الأمريكية الرأسمالية من حكاية سندريلا الخرافية، والتي مثلتها خير تمثيل بوبو روكفلر[73] أبنة عامل المنجم؛ التي تزوجت واحداً من أغنى رجالات أمريكا، ثم تطلقت مع تسوية بعدة ملايين من الدولارات.

خصوصية الحياة الاجتماعية الأمريكية أوجدت الأرضية النفسية المناسبة لإيجاد سوق السلع الجماهيري، وسوق الجنس الضخم والتنافس الجنسي بين النساء. قصص من أمثال تلك التي كتبها هوراشيو الجِر[74] أصبحت دليلاً للرجال لكيفية الارتقاء بمكانتهم الاجتماعية وجمع الثروات.

أما القصص الرومانسية الموجهة للمرأة فكانت تشير عليها بالسعي إلى ابن رب العمل والزواج منه، أو الزواج برب العمل نفسه. كل ما عليها فعله هو أن تسرع إلى السوق وتشتري كل السلع التي تضمن تحويلها من سندريلا إلى أميرة.

أصبحت الأزياء والموضة منجماً يدر الذهب للرأسمالية، بإمكانيات لا متناهية. تعين على رجال الأعمال في هذهِ المجالات تغيير الموضة فقط واختراع مستحضرات تجميل جديدة ليصبحوا أغنى فأغنى. وهكذا تم تحت خيمة الرأسمالية الحديثة استبدال بيع النساء كسلع، ببيع السلع للنساء. استجابة لأسطورة منتشرة بأن الجمال يُقاس بمجاراة الموضة، وأن كل النساء لديهن حاجات متماثلة، لأنهن كلهن بحاجة للوصول إلى شكل مطابق من الجمال.

استغلال الجسد الانثوي

توجد ثلاث عصابات من الجشعين الاستغلاليين، يسحقون النساء بمكر الأفاعي لبذل الأموال بحثاً عن الجمال:

1- عصابة تسعى للربح عبر التلاعب بالجسد الأنثوي، ليطابق المعايير الحالية للموضة من وزن وطراز.

2- عصابة تزوق هذا الجسد لتتلاعب بهِ عبر مستحضرات التجميل والزينة والكريمات والعطور، وما شاكل.

3- عصابة تتربح عبر تزيين الجسد وتزويقه بأحدث صرعات الموضة والمجوهرات، الخ.

العصابة الأولى تصر أن على المرأة لتكون جميلة، أن تزن وزناً معيناً، لا تزيد ولا تقل عنه. وعلى المرأة أن تكون لها مقاسات تعسفية محددة للورك والخصر والصدر. وإذا شذت عن هذا النمط الميكانيكي فهي ليست جميلة.

يسبب هذا الأمر معاناة هائلة للنساء، المختلفات عن خط التجميع هذا. بينما ترزح المرأة تحت وطأة أعباء الحياة في ظل الرأسمالية، والتي هي مصدر مشاكلها كلها دون أن تدري، تظن المرأة العاملة بالذات أن عدم اتساقها مع مقاييس الموضة الخيالية، سبب لكل المتاعب. تصبح ضحية لمعقد النقص وتبدأ بدفع الآلاف وعشرات الآلاف والملايين من الدولارات للعاملين على تغيير الجسد الأنثوي وتزيينه، هذا المال الذي تكسبه بشق الأنفس يصب في آخر المطاف في خزائن أولئك الاستغلاليين.

هذه المعايير الجسدية التي تم ترسيخها عبر نجمات هوليوود ومسابقات الجمال، والدعاية. يتم عرض «الجمال» لأعين الجماهير الكبيرة من النساء وهن مخدرات، عبر كل الوسائل الممكنة في الأفلام، أو التلفاز في مجلات الموضة والمجلات المصورة. هذا التوحيد الرتيب لمعايير «الجمال» يرفض كل ما بقيّ من جمال يشذ عن هذهِ القاعدة، التنوع الفعلي للجمال الحقيقي يتم شطبه. هذا يشبه انتاج الكثير من الكعك المحلى بنفس الطعم ونفس القالب.

أما المجموعة الثانية فهم تجار مستحضرات التجميل والأصباغ ومجملي هذا الجسد الموحد بصرامة. ربما يكون العمال في تلك المصانع وحدهم من يدرك حقيقة أن نفس المواد الأولية

الرخيصة توضع في جرة أو زجاجة وتباع بعشرة دولارات، نفسها تباع في متاجر الخمسين سنتاً. لكن السذج والابرياء يعتقدون أن جرة بعشرة دولارات لا بد أن تحتوي على علاج سحري محتمل، لا يوجد في المستحضرات الرخيصة. الإعلانات الكبيرة تقول ذلك، ولا بد أن يكون ذلك حقيقياً. هؤلاء النساء المسكينات يضيقن مصادرهن المالية للحصول على ذلك المنتج السحري، على أمل أن يتحولن من عاملات إلى أميرات.

أخيراً، عصابة الموضة؛ النساء أمام خيار مؤلم: هل تختار المتانة أم الموضة العابرة؟ وحدهم الأغنياء قادرين على القيام بالأمرين، لقد صمموا سيركاً على مدار الساعة؛ أزياء للصباح، للظهيرة، أزياء حفلات الكوكتيل، أزياء للأمسيات وللسهرات ولوقت النوم. هناك أزياء مختلفة لكل مناسبة، والمناسبات لا تنتهي. بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الإكسسوارات المطلوبة «لتتماشى» مع أيّ شيء يفترض أن تتماشى معه.

هذا الكدس من الموضات يضغط على النساء، فما هو جيد لأسبوع ما، غير جيد في الأسبوع التالي، أو الشهر التالي، أو الموسم التالي إذ يتم اعتباره طراز قديم عفا عليه الزمن، لظهور موضة جديدة. مثال جيد على كون النساء لا يجدن ما يحتجنه، بل هن مجبرات للحصول على موضة ما، ما أشار إليه كريستيان ديور مصمم الأغنياء الأشهر، والذي تُقلد أزياءه في نسخ أرخص للفقراء، يُصرح في مقال منشور في النيويورك تايمز أنّ لديه السلطة لتقصير أو تطويل تنانير خمسين مليون امرأة أمريكية، أو فعل كلا الأمرين!

تغير ثلاث أو أربع بوصات في طول الملابس يمكن أن يكون كارثة للنساء اللاتي يشعرن بالضغط للظهور بمظهر عصري في العمل. قد يكون ممتعاً للأغنياء القيام بتفريغ أدراجهم، وشراء ملابس جديدة، لكنه أمر مكلف للغاية بالنسبة للفقراء.

لذا عندما يُزعم أن للمرأة الحق في استخدام مستحضرات التجميل والموضة وما إلى ذلك بدون التفريق بين مثل هذا الحق وبين الإكراه الاجتماعي للخضوع لهذا الاستغلال، فإن ذلك يقودنا مباشرة إلى فخ البروباغندا والممارسات الرأسمالية. النساء في طليعة حركة التغيير الاجتماعي، لا يجب أن يدعمن ولو عن غير قصد سباق الجرذان هذا لمجاراة الموضة، لأن وظيفتهن فضح الأوغاد المستفيدين من إيذاء النساء.

المعارضة لا التكيف

يُزعم أنه ما دامت الرأسمالية مهيمنة؛ فلا حيلة للمرأة إلا الالتزام بمقررات الزينة والموضة هذه. وإلا فسيتم نبذها في هذا الصراع الاجتماعي والاقتصادي. وهذا صحيح عند التقدم لعمل عمل في مكتب، أو ما شابه. لكن من الضروري الاعتراف على الأقل بهذه الحقيقة المرة.

وهذا لا يعني أن علينا القبول بهذه المراسيم والضغوط المكلفة مادياً، ونستمر بتقبلها دون احتجاج. غالباً ما يضطر العمال في المصانع على قبول أوامر التعجيل بالعمل وقطوعات الراتب والهجمات على نقاباتهم. لكنهم يتقبلونها محتجين ويستمرون بالصراع ضدها مبينين موقفهم، في مواجهة المضطهدين.

الصراع الطبقي هو حركة معارضة، وليس تكيفاً. وهذا يجب أن يصدق ليس فقط على العمال في المصانع، ولكن للنساء كذلك، سواء أكن عاملات أم ربات بيوت. لكن ولكون المسألة تتم مدارتها بحذاقة، وقعت بعض النساء في فخ التبني لمجال التجميل. يتعين علينا أن نصحح هذا المسار، دعونا نوضح كيف أن معايير الموضة الحديثة للجمال ليست أمراً قطعياً لا نقاش فيه، ويمكن للمرأة، وينبغي لها أن تبدي رأيها بهذا الشأن.

يمكننا أن نشير على سبيل المثال، إلى أن استخدام مساحيق التزيين هو اختراع حديث إلى حد ما. ففي القرن الماضي كان حظ المرأة في الزواج ينقص إذا ما استخدمت الزينة. كانت الزينة علامة لبائعات الهوى في حينها، وما كان لرجل محترم أن يتزوج «امرأة مُصبغة».

حدثت تغيرات كاسحة في ملابس النساء نتيجة للعدد الكبير من النساء اللواتي يدخلن في الصناعة والخدمات خلال الحرب العالمية الأولى. لقد نبذن مشدات الجسم وخيوطها الستين، وتكبير المؤخرة بالحشوات، ولبس القبعات الكبيرة، وتبنين ملابس مناسبة أكثر لاحتياجات العمل. ملابس اليوم «الكاجوال» نشأت من حاجة النساء العاملات، ثم تبنتها النساء الغنيات من أجل لهوهن ورياضتهن.

في الآونة الأخيرة، صار قماش الدنيم[75] البروليتاري وبدلة الميكانيكي في المعامل جذاباً اجتماعياً، وعلت مكانته. وربما اغتاظت النساء الغنيات من المظهر المثير للمرأة العاملة وهي

ترتدي قميص الصوف وبدلة العامل، لذا قررن تبني هذهِ الموضة في حياتهن عند ضواحي المدن وفي بيوتهن الفاخرة.

في هذا الهجوم على صناعة الموضة لا أقف ضد الازياء الجذابة ولا أقاوم أيّ تغيرات ضرورية، أو مرغوبة في نوع الملابس التي نحتاج لارتدائها. كل وقت جديد بظروف انتاجية واجتماعية جديدة سوف يحدث تغييراً في الأزياء. أنا أقف ضد سباق الفئران هذا، ضد استهلاك الوقت والمال والانتباه بسببه. الوقت هو أكثر المواد الأولية أهمية، لأن الوقت هو الحياة. لدينا أشياء أفضل لفعلها بحياتنا من تبديدها في هذا الهيجان المبتذل والباهض الثمن المثير للاكتئاب في سبيل مجاراة الموضة.

في ظل الاشتراكية تكون المسألة الفعلية هي رغبة المرأة في صبغ وتزيين جسدها أم لا، ولن يكون الأمر أكثر من كونه تقليداً اجتماعياً في الأعياد والمناسبات، مثل عيد الهالوين، أو زينة الممثلين على المسرح أو المهرجين في السيرك. ربما تعتبر بعض النساء أنفسهن أكثر جمالاً عند وضع الزينة المبالغ بها؛ بينما أخريات لا يردن ذلك. سيكون الأمر قرار شخصي خالص ولا شيء أكثر. لن يكون هناك ضغوطات اقتصادية أو اجتماعية على كل النساء للخضوع لهذهِ الممارسات. لذا دعونا لا ندافع عن أولئك المحتالين الذين يقومون بهذا الاضطهاد التجاري للنساء تحت مسمى «الجمال».

الة البروباغندا الضخمة

في السنوات القليلة الماضية تزايد الاهتمام بالإناث كمشتريات مهمات للبضائع الاستهلاكية من كل الأنواع: المنزل وأثاثه والمفروشات والسيارات والثلاجات ومستلزمات العائلة واحتياجات الأمومة، وما إلى ذلك. العديد من تلك المنتجات ضرورية ومفيدة، وعلى هذا النحو فهي لا تحتاج لبيعها من خلال الضغط الإعلاني الضخم، وإضافة أجور الدعاية على تكلفتها. لكن في ظل النظام الفوضوي للرأسمالية وإعادة تكرار نفس المنتجات، بصيغ مختلفة غير مفيدة، تتنافس المصانع العديدة مع بعضها البعض على الحصة الأكبر في سوق الاستهلاك. لذا فإن صناعة الإعلان، والتي هي زوائد طفيلية تتغذى على الأعمال التجارية الكبيرة، تنامت هي الأخرى لتكون نوعاً جديداً من الأعمال التجارية الكبيرة.

جميع وسائل الإعلام من الراديو والتلفاز والصحافة والتي لها نفوذها على الرأي العام، قائمة على دعم وكالات الدعاية المأجورة لتجار الرأسمالية. كل هذهِ الأجنحة للأعمال الكبيرة لا تدفع فقط لبيع السلع، لكنها تروس في الة البروباغندا الضخمة والتي تنشر الأيديولوجية والسيكولوجية المطلوبة للحفاظ على النظام الرأسمالي وسلطته الاستغلالية.

كاهل النساء مثقل أساساً بالكثير من المشاكل والإحباطات، لذا فهن أكثر تقبلاً لهذا التلاعب السيكولوجي والذي يوجههن إلى شراء الأشياء كحلول لمشاكلهن. بالإضافة إلى الصحافة العامة، تتنامى أعداد المجلات الموجهة حصرياً للنساء، خاصة في حقل الموضة ومستحضرات التجميل، منتجات جميلة مرسومة بأفضل ما يمكن، على أرقى أنواع الأوراق الملساء الزلقة، لكن المحتوى زلق كذلك لأنهم لا يبيعون الجمال فقط لصالح التجار، لكنها تروج بشكل كبير لفكرة أن المرأة التي تشتري أكثر، هي الأكثر سعادة ونجاحاً بين النساء.

في الإعلانات الفاتنة نرى صوراً جذابة لنساء جميلات بجانب سلع من كافة الأنواع. الحلم الأمريكي العظيم أصبح حقيقة بالنسبة للنساء الجميلات التي بوسعهن شراء السيارات وأجهزة التلفاز وما إلى ذلك، وتبدو لهن حتى حياة جنسية خيالية، وعائلة مثالية. المرأة التي تفشل في الحصول على كل تلك الأشياء تتساءل ما العيب فيها حتى تم تجريدها من هذا الحلم الأمريكي العظيم. تلوم المرأة نفسها لأنها لم تولد غنية وجميلة.

هذا الشعور بالنقص الذاتي تعززه القصص والمقالات التي تشغل في تلك المجلات المسافة بين الاعلانات الضخمة. الكتاب القادرين على فضح الرأسمالية كمسبب لهذا الحس بالهزيمة الذي تعانيه جماهير النساء، لا يتم قبول آرائهم للنشر في هذه المجلات الزلقة، أما الآراء «العلمية» التي تنشر فيها، فهي مصممة خصيصاً لترسيخ اضطهاد الرأسماليين للنساء، لا أن تقلل من وطأتها.

وهكذا يتم تعيين مختصين من مختلف المجالات، لكتابة مقالات لربات البيوت المتلهفات، يتم إلقاء محاضرات عن حاجتهن للعناية بالأطفال أكثر، ومحاضرات عن حب الأمّ والاهتمام بالعائلة، ومن الجليّ أن هذا كلّه لن يتم إلا بشراء العديد من المعدات باهضة الثمن. أو تجدهم يناقشون المشاكل المرتبطة بعمل النساء، وغالباً ما يتم التلميح بشكل خبيث أن سعادتهن العائلية وحياتهن العاطفية، مهددة بسبب مخاطر العمل خارج المنزل. وها هنا مجدداً يبدو أن الخطر يمكن ان يتم تلافيه من خلاء شراء معدات أكثر.

عند مقارنة وضع النساء العاملات بربات البيوت والعكس صحيح، نجد أن المرأة في كلا الفرقتين يتملكها شعور بالذنب، والصراع النفسي والإحباط، تتضاعف كل تلك المشاعر في حالة كون المرأة عاملة وربة بيت. تتمزق المرأة في صراع مصالح لا يمكن حلّه.

لكن هذهِ المحنة، وهذا الشعور بالهزيمة الذي تقاسيه المرأة، مفيد للغاية لطالبي الربح، إذ يجعل المرأة تسارع لشراء أشياء جديدة، للتخلص من القلق والإحساس بالفشل. ومن أجل أن تستعيد المرأة ثقتها بنفسها غالباً ما تتجه لشراء ملابس جديدة، أو مستحضرات تجميل سحرية تعد بمنحها الجمال في علبة.

باختصار، يقلل النظام الرأسمالي من قيمة النساء أولاً، ويضغط على جمهور النساء الكبير، ويستغل الصراعات النفسية لدى المرأة ومخاوفها من خلال إشعال نار المبيعات لمنتجات لا حد لها.

لذا فإن مهمتنا تكمن في فضح النظام الرأسمالي، كمصدر لهذهِ الشرور، وفضح الة دعايته الضخمة، والتي تُقنع النساء المغلوبات غلى أمرهن أن الطريق إلى الحياة الناجحة والحب، يتم عبر الشراء. أن التغاضي عن المعايير الرأسمالية أو قبولها في أيّ حقل من السياسة إلى الأزياء هو تأييد لنظام الكسب الذي لا يرحم، وهو دعم لاستمراره، وضحيته النساء.

اللغز الأنثوي دراسة سيسولوجية متميزة، عمل شجاع طال انتظاره لمجابهة المرتزقة من صانعي الخرافات، الذين ابتكروا الصورة المبجلة للبطلة ربة البيت السعيدة، ليتم فرضها على النساء الأمريكيات. [76]

الكاتبة وهي أم لثلاث أطفال تحلل وضع مثيلاتها من النساء، اللائي ينتمين لأعلى الطبقة الوسطى المرفهة في المجتمع الأمريكي، لا خيار لدى معظم النساء سوى القبول بالتقيد بالمنزل، أو أن تعمل في مصنع أو مكتب أو كليهما. لكن النساء اللواتي تستعرضهن بيتي فريدان محظوظات أكثر، إذ بإمكانهن الحصول على كل شيء من تعليم ومنح دراسية ووظائف جيدة بأجر ممتاز، مع ذلك فمعظم هؤلاء النسوة لا يتطورن لأقصى قابلياتهن، ويكتفين بالعمل كربات بيوت.

تكشف الكاتبة عما يحدث خلف الستائر المغلقة في ضواحي الطبقة الوسطى، حيث تعاني النساء هناك من مشكلة لا اسم لها، إلا وهي عدم القدرة على «التماهي» مع حيز وجودهن الضيق

المقيد. تصف كذلك النتائج الكارثية لهذهِ الحالة على كل أفراد العائلة. قلة من النساء نفذن من الفيضان المرضي لما تسميه «اللغز الأنثوي».

لنتائج بيتي فريدان دلالات أبعد من محيط ربات البيوت الطيبات التي تحرت عنهن. لهؤلاء السيدات أنماط من السلوك الملهمة لربات البيوت من الطبقة العاملة، واللواتي يعتقدن مخطئات بأن المرأة التي تنتمي للطبقة الوسطى لديها كل شيء، ولديها بالتالي كل الإجابات. تتسرب هذهِ الأفكار والقيم المشوهة إلى جمهور النساء وتؤثر فيهن، ومن ذلك أن بعض النساء العاملات صرن يتساءلن عما إذا كانت الحياة أفضل لو قدر لهن العمل كربات بيوت بدوام كامل. لذا يتعين تخليصهن من هذهِ الشكوك.

اللغز الأنثوي

اللغز الأنثوي إنما هو صيغة محدثة من صيغ الاستعباد المنزلي، والذي كان يعتبر بصراحة أكبر أن «البيت مكان المرأة»، أنه الطعم المسموم الذي يجذب المرأة، لترجع وعن طيب خاطر إلى فخ حاربت جداتهن للخروج منه.

تذكر بيتي فريدان بأن نساء الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين كنَّ يقدن نضالاً نسوياً ملهماً لحقوق المرأة. من هذا التمرد ربحت النساء حق التعليم العالي، والمشاركة في الانتاج والوظائف، والحق في الملكية المستقلة، وحق التصويت. هذه الاصلاحات كانت تعديلات جوهرية على العبودية السابقة في المنازل، وكان يمكن أن تكون نقطة انطلاقة أكبر للمضي قدماً نحو الاحترام الكامل لبشرية الإنسان وكرامته.

بدلاً عن ذلك حلت الحرب العالمية الثانية ومن عواقبها أنها أنتجت ردة كاسحة تصفها المؤلفة بانها ثورة مضادة ضد النساء. الدعوة لهذا التراجع أطلقها فارنهام ولاندبرغ بكتابهما المرأة الحديثة: الجنس الضائع والمنشور في العام 1942؛ ويُقصد بالنساء «الضائعات» المرأة المستقلة مادياً والمهتمة بالعلوم والفنون والسياسة، التي انخرطت في وظيفة خارج أطار العائلة.

بدلاً عن المرأة الذكية، المبدعة، والملهمة اجتماعياً، بدأ الترويج للمرأة «الأنثوية» ربة البيت فارغة الرأس، الراضية بجدران منزل جميل دافئ، ولإضفاء الزخم على التدجين المنزلي، صار «ديناً، نمطاً يتوجب فيه على كل النساء عيشه وإلا فإنهن يتنكرن للأنوثة» كما تقول المؤلفة. ومن هناك بدأت العودة إلى الزريبة القديمة خلال السنوات التي اتسمت بالازدهار الاقتصادي في الخمسينات.

لتعبئة النساء من أجل هزمهن، تم تشويه الكثير من الحقائق عن المحاربات الأوائل لحقوق النساء، على الرغم من كون معظم أولئك النسويات المقاتلات كن متزوجات ولديهن أطفال وبيوت، فقد تم وصفهن كعانسات جائعات للجنس، يشعرن بالمرارة لعدم القدرة على استيفاء حق أنوثتهن عبر الزواج والأمومة. من بين الصفات التي لا تغتفر لهؤلاء النسوة الطامحات، استمتاعهن بالمشاركة في النضال من أجل التغيير الاجتماعي!

تم التعتيم أيضاً على المصدر المرجعي الكبير لهذا الانسحاب نحو المنزل، فلقد فرض هتلر في الثلاثينيات، عقيدة التثليث لأدوار النساء (الاطفال- المطبخ والكنيسة)، وبحلول الاربعينات تم الترويج لشعار مشابه للنساء الامريكيات، في قالب مبهرج يُدعى «الأنوثة».

تربط المؤلفة التقبل الأعمى لهذه الشعارات من قبل نساء الطبقة الوسطى، اللواتي قبلن بقدرهن، بحال السجينات في معسكرات الاعتقال النازية، فقد صارت هؤلاء النسوة جثثاً تسير إلى الموت على قدميها.

بمعنى أن ذلك ليس بعيد المنال، كما يبدو. المرأة التي «تكيفت» لتصبح ربة منزل، والتي كبرت دونما رغبة إلا أن تصبح ربة بيت، تواجه خطراً كبيراً مثل ملايين الأسرى الذين يمشون إلى حتفهم في معسكرات الاعتقال، بينما يوجد الملايين الذين لا يصدقون بحقيقة وجود معسكرات الاعتقال.

الحقيقة أن الأسلاك الشائكة التي تحيط بمعسكرات الاعتقال المريحة في الضواحي هي أسلاك غير مرئية. ما كان مرئياً لضحايا هذا «الحلم الأمريكي» الفخ المذهب، المتمثل بالبيوت المثالية للطبقة الوسطى. العمل كربة بيت باعتباره مهنة مدى الحياة، يجعل المرأة غارقة في توافه لا تتطلب مجهوداً فكرياً أكثر من المستوى الفكري لطفل في الثامنة من العمر. وإذا لم يكن هناك عمل كافي لشغل كل الوقت، فقد بدأ التوسع بقائمة الأعمال المنزلية، للحرص على شغل كل الوقت الممكن، والاستنزاف التام لطاقة المرأة في عمل أثر آخر، ليتبدد الوقت على تفاصيل بلا معنى. بوسع المرأة العاملة عادة أن تنجز في نحو ساعة من الزمن، ما تصرف عليه النساء من ربات البيوت ست ساعات ويبقى العمل مع ذلك غير منته حتى العشاء، حتى مع توفر كل الأجهزة الحديثة التي تفضي إلى تقليص وقت العمل، تشير المؤلفة إلى أن ربة البيت الامريكية الحديثة تقضي في الغالب وقتاً أطول في بيتها من الوقت الذي كانت تقضيه جدتها في الأعمال المنزلية.

مثل ديوجين ومصباحه تسير بيتي فريدان في البحث عن امرأة واحدة على الأقل؛ امرأة ذكية وقادرة، وتشعر مع هذا أن العمل في البيت طوال الوقت يرضيها، ولم تجد ذلك في عينة من 28 امرأة، من أعلى النساء دخلاً في المجتمع، وكما يلي:

ستة عشرة امرأة منهن يخضعن للعلاج النفسي، وثمانية عشر امرأة تتناول المهدئات وبضعة نساء حاولن الانتحار، وبعضهن تم حجزهن في المشفى لفترات متباينة بسبب الاكتئاب أو حالة من الذهان المشخص تشخيصاً غامضاً. ستفاجئ لو عرفت كم يتكرر أن تنفجر ببساطة امرأة سعيدة من الضواحي في ليلة واحدة، لتركض في الشارع عارية. كما يقول الطبيب المحلي -وليس الطبيب النفسي- الذي يتم استدعائه في حالات طارئة كتلك. اثنا عشر امرأة دخلت في علاقة خيانة خارج الزواج بشكل حقيقي أو متخيل.

هذا التضارب بين الواقع وبين ما يتم الترويج له على نطاق واسع، من خلال تصوير الزوجات ربات البيوت السعيدات اللواتي جعلن بيتي فريدان تستفيق من التنويم في حياتها. لتسأل سؤالاً جوهرياً: «ما الذي جعل هؤلاء النساء يعدن إلى البيت مجدداً بعد تحررهن؟» ثم شرعت تسعى لجمع البيانات، التي تحل عقدة الخدعة.

غاسلي الأدمغة

الة البروباغندا القوية موجودة لجذب ربات البيوت، إجابة لرغبة النساء في شيء أكثر من زوج وبيت وأطفال، بدأ التعليم الموجه جنسياً في المدارس والجامعات، وتوغلت تلك الحملة لتخترق عقيدة الجمهور في كل مكان، والكلمة المفتاحية في هذا التكنيك المتحكم بالعقل هي «الأنوثة» والتي فعلت فعلها، كمصدر للترهيب.

بنات الكلية مرعوبات من فقدان أنوثتهن إذا ما سرن في طريق العلم، أو الدراسة الجادة، تتعلم المرأة تمويه ذكائها، وتفريغ عقلها بالكامل، أما مهمتها الرئيسية والتي يدعمها فيها الآباء والمعلمون فهي البحث عن خاتم الزواج، أو كما قال أحد المعلمين في كلية للبنات: «الكلية أفضل سوق زواج في العالم».

تم تعديل التعليم العالي للنساء ليتلاءم مع الهدف الجديد؛ لقد أصبح ممراً للزواج في الضواحي، دورات في الطبخ المتقدم والاقتصاد المنزلي عوضاً عن دروس الكيمياء والفيزياء وما إلى ذلك. بينما كانت المتعلمات قديمات الطراز قد تمردن على «وجبة الحساء الراقية» التي تُقدمها كورسات الفنون الحرة، واليوم صار لهذهِ الفنون كليات إلى جانب كليات النخبة أو حلت محلها، مثل فاسار وسميث وبرنارد وغيرها، تلك الكليات التي كانت من رواد التعليم العالي للنساء في الولايات المتحدة والمعروف عنها معاييرها الفكرية التي لا تضاهي، صارت معاييرها لا تنطبق على النساء، وكما يقول المتحدث عن كلية نسائية شهيرة: «نحن لا نعلم النساء ليصبحن باحثات، نحن نعلمهن ليصبحن زوجات وأمهات». سخرت الفتيات من ذلك سخرية تستحق الثناء. بإطلاق لقب (WAM) عليه[77] بالمختصر فإن عواقب هذا التدهور في مسيرة التعليم كما تقول المؤلفة:

«التعليم الوجه جنسياً إنما هو إقصاء للأجيال الجديدة من النساء الأمريكيات، بنفس الثقة التي يتم فيها أقصاء الزنوج الأمريكيين من الفرص لتطوير قابلياتهم الكاملة في التيار الرئيسي للحياة الأمريكية».

إلى جانب هذا التدني في المعايير التعليمية؛ فإن معدل سن الزواج ينخفض بصورة كبيرة (يبدأ غالباً في المدارس الثانوية)، بينما تزداد معدلات الولادة، وتنتشر موضة الوامزم[78] لتكتسح الأمة، هذهِ الموضة تقودها نساء الطبقة الوسطى، واللواتي تتبعهن نساء الطبقات الأخرى في السباق لإنجاب المزيد من الاطفال»

معدل العمر للزواج الأول في الخمسة عشرة سنة الماضية، انخفض إلى أدنى مستوى في تاريخ هذا البلد، وهو الأقل في كل العالم الغربي تقريباً، بل يقارب عمر الزواج في البلدان النامية .. المعدل السنوي لزيادة السكان في الولايات المتحدة هو من بين المعدلات الأعلى في العالم، يكاد يقرب من ثلاث أضعاف مثيله في دول أوربا الغربية، ضعف اليابان تقريباً، وعلى مقربة من أرقام الزيادات في سكان أفريقيا والهند».

استمرار هذا التوجه للنساء يسببه ويدعمه المؤثرون على الرأي العام بقوة من محررين وكتاب المجلات النسائية وأعمدة الجرائد، والعروض المتلفزة والروايات الشعبية وكل ما إلى ذلك. أنهم يحذرون المرأة وبشدة، ويحرمون عليها التوق للتعبير عن ذكائها وموهبتها، لأن ذلك سيكون سبباً كبيراً في خسارة «الأنوثة».

العلوم الاجتماعية: علم الاجتماع التطبيقي وعلم النفس والأنثروبولوجي يساء استخدامها أيضاً، لتمرير لغز الأنوثة، حتى النساء الذكيات والمتيقظات يجدن من الصعب التشكيك في هذهِ البروباغندا حينما تتخفى في العلم، النتائج المشكوك بها للسيكولوجي المشهور فرويد، تم تحريفها وتطويعها لترسيخ فكرة أن مكان المرأة في البيت. لأسباب بعيدة للغاية من حياة فرويد نفسه ترى فريدان انه قد أصبح داعماً إيديولوجيا للثورة الجنسية المضادة في امريكا» تقول بيتي فريدان أن معقد «حسد القضيب» صار فخاً نفسياً، يتم به اصطياد أي امرأة تنتفض مستاءة من الحط من شأنها كامرأة، لقد اتم التذرع بهِ مراراً وتكراراً ضد أي مطلب «لا أنثوي»؛ كالحرية والمساواة مع الرجال.

عالمة الأنثروبولوجية الوظائفية المعروفة مارغريت ميد (دون دراية منها ربما) أصبحت واحدة من أكثر المساهمين المؤثرين في دعم العلوم الزائفة في مسألة لغز الأنوثة. لدى ميد رأي «هندسي» عن النساء، وهي ترى أن شكل الجسد وهندسته من «مداخل ومخارج»، أمر مهم في تحديد مكانة الفرد في المجتمع.

بترقيع أجزاء مقتطعة من تعاليم فرويد تسافر إلى البحار الجنوبية، حيث تخطط وترسم شخصية القبائل وأفرادها؛ وفقاً لثنائية «الفم» و«الشرج» على هيئة جداول، لتقدم للنساء أخباراً جيدة حيث أن أعضائهن الجسدية هي في النهاية متساوية مع الرجل، بما أن النساء يمتلكن «مدخلاً» بالغ «الأنوثة» يتمثل في المهبل، فإن المساواة بين الرجل والمرأة حتمية مادام لكل قضيب رحم يعادله! أنها تصر على أن نواحي الحياة من إنتاج ابداعي والذي هو البنية التحية للحضارة تعتمد على وجود القضيب، وأن الإبداع الأنثوي المحدد يتمثل في التقبل السلبي للرحم» لذا تقول فريدان: «أثرت آراء مارغريت ميد في المجتمع حتى صارت الإنجابية طائفة اجتماعية، يكون فيها الإنجاب هو المهنة الوحيدة فيها للنساء واستبعاد أي مسعى ابداعي آخر»

من المفارقات أن مارغريت ميد لا تقيد حياتها بما تكتبه في كتبها، كما تشير إلى ذلك بيتي فريدان «لقد اظهرت قدرات أنثوية أخرى غير ولادة الأطفال، عندما شقت طريقها في عالم الرجال دون الإنكار بأنها امرأة» ولكن لم يحدث إلا من قريب أن عدلت مارغريت ميد عن آرائها السابقة، وبدأت بتوبيخ النساء -وأزواجهن المدجنين كذلك- على الانشغال المبالغ به بالبيت والعائلة.

كل هؤلاء المعلمين والعلماء وغيرهم من المؤثرين على الرأي العام، من المفكرين غير مستقلين هم أنفسهم، إذ يتأثرون بأفكار من يسيطر على اقتصادنا وتخدم آرائهم بشكل مباشر أو غير مباشر، مصالح هؤلاء، ومن بينها بالطبع الحاجة لتوسيع المبيعات وزيادة الربح.

البيع الموجه جنسياً

تتكرم بيتي فريدان بتوضيح أن البيع الموجه جنسياً للسلع الاستهلاكية، ليس نتاجاً لمؤامرة اقتصادية يقودها رواد «الأعمال التجارية الكبرى»، مع ذلك، فما تقدمه من دلائل يشير بشكل واضح إلى أن طالبي الربح هم المحرك الأساس والمستفيد الأول من الدعاية الضخمة لإبقاء النساء في المنازل، فالنساء هن المشتريات الرئيسيات لمستلزمات البيت وحاجات أفراده، وكما يشير المؤلفة: «في كل حديث عن الأنوثة ودور المرأة، ينسى المرء أن العمل الواقعي الوحيد في أمريكا هو التجارة»

يتمثل عمل الوكالات الإعلانية التجارية في بيع المزيد والمزيد من البضائع والموضات، المتغيرة بسرعة، عبر الترويج للمبيعات. يتم دراسة نقاط ضعف النساء واستغلالها بقسوة من قبل غاسلي الأدمغة معدومي الضمير في جادة ماديسون، المحتالين بخبث للاستفادة من حقيقة أن الزوجات لسن مرتاحات وغير راضيات ويشعرن بالملل، «فتيان العمق»[79] استخدموا علم النفس بشكل سحري ليقدموا وعداً خيالياً بالشعور بامتلاء انثوي عبر شراء الأشياء.

أصبحت النساء جائعات بلا نهاية - لا يفهمن أن هذا الجوع هو في حقيقته توق لوسيلة تعبير عن الذات، وعن امكانياتها الانتاجية والاجتماعية والثقافية والفكرية- فريسة سهلة لهذا الاحتيال من الباعة، تكتب بيتي فريدان أن هوية المرأة كإنسان انهارت، لذا فهي «بحاجة لتلك الزخارف الخارجية للتغطية على الخواء الذاتي، أملاً بالشعور بأنها شخص ما» واحد من لاعبي الاحتيال الرئيسين، والذي يتقاضى نحو مليون دولار في السنة مقابل خدماته، أخبر المؤلفة كيف يتم هذا التلاعب الماكر:

> المكر الجيد (إذا لم تكن تخاف من هذه الكلمة) يُعطي لربات البيوت الأمريكيات إحساساً بالهوية، بوجود هدف ما، بالإبداع، وتحقيق الذات، بل وحتى المتعة الجنسية

عن طريق شراء الأشياء..

في الاقتصاد الحر يتعين علينا دائماً أن نطور الحاجة لمنتج جديد، ولفعل ذلك يجب أن نحرر في النساء الرغبة بتلك المنتجات الجديدة، هذا أمر يمكن التلاعب به، لكي نبيع حاجة ما علينا أن نجعلها تؤمن أنها بحاجة لها وبسرعة، يريد المُصنع من المرأة أن تبقى في المطبخ، ونحن نعرض له كيفية فعل ذلك على أحسن وجه. إذا ما أخبرها أن كل ما تستطيع ان تكونه هو زوجة وأم فستبصق في وجهه لا محال، لكن عندما نُريها طرق الإبداع في المطبخ. نحرر عندئذ حاجتها للإبداع وتظل هي في المطبخ.

لتحفيز ربة البيت لتصبح مشترية شغوفة، يزيد فتيان العمق شهيتها للطعام والجنس والإنجاب. لذا تنتشر في المجلات الملساء لوحات كبيرة تغطي صفحات كاملة، لوحات ملونة بشكل درامي لصور الفواكه، والخضروات من بنجر وخيار وفلفل أخضر وبطاطس، ناهيك عن الخبز المحمص الذي يقطر منه المرق، والتماع الفطائر والكعك المنتفخ، صور بالحجم الكبير محجوزة بالعادة لمعلني الدرجة الأولى، يوصف فيها الطعام مثل علاقة «حب محرم»، هذا الانتشاء «الفموي» يتطلب بدوره شراء المنزل الصحيح الذي يتضمن مطبخاً رائعاً، مزين بالغالب بجداريات من الفسيفساء ولوحات أصلية، ومجهز بالخلاطات الكهربائية اللامعة، والأفران الحمراء بزوايا مستديرة، وكل الملحقات الأخرى من أدوات ومطيبات تربط الحالة النفسية بالمعدة.

وبالمثل، فإن الوعد بالإغراء الجنسي والمشاعر المثيرة يتصدر إعلانات التجميل الفاتنة، أحمر الشفاه وصبغات الشعر، والملابس الراقية، والعطور والسيارات المطلية بالكروم وما شابه. ثم أن المتعة المقدسة للإنجاب تتطلب تنوعاً كبيراً في المنتجات منها الوردي ومنها الأزرق، وغرف الأطفال المليئة باللعب، وكتب الدكتور سبوك[80] صارَت أنجيل اليوم، بالمراقبة نجد أن مخارج الجسد «الشرج» هو الأقل أثارة للخيال، والاهتمام بالتالي، لذا فأن مناديل الحمام الناعمة، بقيت مجرد ورق حمام، حتى وإن جاءت بيضاء أو بأربعة ألوان.

بعد كل ما تشتريه المرأة بهوس لا تصل إلى النتائج الموعودة، فتشرب من ماء البحر الذي لا يروي تعطشها، وتستمر ربة البيت بالشراء أكثر فأكثر، لكن كما تشير الكاتبة فإن للمرأة عقل يرفض ذلك، وقدرات تطالب بإفساح المجال لها، ولا يمكن ارضائها بالطعام وحده، أو بالجنس أو

الإنجاب. ومن تعتقد منهن أن الإحباط سيزول بمجرد أن تشتري بيتاً أكبر، بموقدين بدل موقد واحد، وبثلاث سيارات بدل واحدة، وبطفل آخر، وبالانتقال للعيش في الضواحي، تكتشف غالباً أن الأمر يزداد سوءًا. لغز الأنوثة يلعب دوراً كبيراً في دعم سوق الاستهلاك، كما فعلت دعايات الحرب الباردة في حقل السلع الإنتاجية، في محل تعليقها على المبيعات الانفجارية في عقد الخمسينيات، تقول فريدان:

> يحتاج الأمر إلى اقتصادي ذكي آخر، لمعرفة ما الذي سيحل بالاقتصاد إذا ما بدأ سوق ربات البيوت بالانخفاض، وما السبل لتجنب ذلك، مثلما يحتاج الأمر لرجل اقتصاد لمعرفة هل كان ذلك الازدهار ممكناً لو لم يكن هناك تهديد بالحرب» بالمختصر، مثلما ازدهرت أعمال تجار الموت من خلال استغلال «خطر الشيوعية» لتشريع الحروب على الأراضي الأجنبية، كذلك فإن تجار اللغز الأنثوي تزدهر أعمالهم عبر التخويف بشبح فقدان الأنوثة.

لكن الخطر الحقيقي والذي يغيب عن الإدراك العام هو تجريد الشعب الامريكي من إنسانيته، أنها عملية لا تؤثر على ربات البيوت فقط، العائلة بأكملها تغرق في هذهِ الدوامة.

الدوامة

شراء كل شيء -حتى لو كان جبلاً من خردة- يفشل في انتاج عائلة سعيدة، تشبه ما ترسمه وكالات الإعلان. على النقيض من ذلك، فإن العلاقات العائلية تتجرد من معناها لتصبح علاقة ملاك ببعضهم، هناك الملايين من النساء المحرومات من ضروريات الحياة والتي من الممكن أن تجعل حياتهن مثمرة، وأكثر احتمالاً. لكن الحال في نساء الطبقة الوسطى معكوس، إذ أن امتلاك الأشياء يفقرهن ويجدب أرواحهن.

عندما تختزل الزوجة إلى مجرد مشترية للبضائع، يصبح الزوج «شيئا في المنزل» والذي يسوغ مشاركته هو كذلك في سباق الجرذان هذا، بالادعاء بأن كل تلك المشتريات أمور ضرورية للزوجة والأطفال. أما الأطفال فيتحولون إلى ممتلكات حية في منزل يمتلئ بالمطيبات من كل

الأشكال، ما من سبيل لفهم أو حتى توضيح المصدر الحقيقي لاستيائهم، الأزواج والزوجات، الآباء والأطفال يتغربون عن بعضهم، وغالباً ما يلومون بعضهم البعض على حياتهم المزرية.

ربات البيوت هن الأكثر يأساً في هذا الحال، ترتجل البعض منهن طرقاً لقتل كل الوقت بعمل المنزل، ويسعين وراء منفذ يغيثهن، ولكن في الاتجاه الخاطئ، تنقاد بعضهن لتمجيد المتع الجنسية بكل أشكالها، باحثات عن الجنس داخل وخارج الزواج، لكن كلما صار البحث عن اللذة الجنسية أكثر ضراوة، كلما تناقصت اللذة التي يبتغينها. تلخص بيتي فريدان ذلك السعي المبالغ به هذهِ الأيام للبحث عن الجنس «اللا شخصي» كالتالي:

> بدلاً عن الحصول على النعيم الجسدي، تقلصت متعة الجنس في أمريكا وبفضل اللغز الأنثوي صار الجنس ضغطاً غريباً بلا لذة، أو محاكاة رثة. صارت الروايات الإباحية، أكثر صراحة، وأكثر إثارة للملل بشكل متزايد. الضرب على وتر الجنس في مجلات المرأة صار مقيتاً بشكل مرضي، التدفق اللانهائي للكتيبات التي تصف التقنيات الجنسية الجديدة تشير إلى تناقص الإثارة. هذا الملل الجنسي يتجلى في الحجم المتزايد لصدور الممثلات في هوليوود، بالانتصاب المفاجئ للقضيب الذكري كحيلة دعائية. صار الجنس مفتقراً للخصوصية، لا يرى إلا في هذهِ الرموز المبالغ بها.

لكن من بين كل الظواهر الجنسية الغريبة التي ظهرت في عصر لغز الأنوثة، فإن أكثر ما يثير السخرية هو ازدياد هذا الجوع الجنسي المحبط للنساء الأمريكيات، وازدياد مخاوفهن المبالغ بها عن الأنوثة، وهكذا ارتدت النساء من السعي عن الاستقلالية إلى السعي لتلبية الدور الجنسي في البيت. وبالتالي حولت النساء الأمريكيات انتباههن بالكامل للبحث عن الجنس بشكل فج صريح، أو ملاحقة الخيالات الجنسية، كما تزايد قلة اهتمام الرجال الأمريكيين بالجنس، وتزايد عدائهم تجاه المرأة، وهكذا استطاع الباعة أن يحذفوا الجنس من الجنس.

ربات بيوت أخريات لجأن نحو أطفالهن كوسيلة أقرب وأكثر قناعة للتخلص من عدم الرضا، بالنسبة للمرأة التي تعيش «من خلال أطفالها» يُصبح حب الأم خانقاً، والأسوء من ذلك أن تُسلب قدرتها على إنشاء علاقة حب طبيعية ناضجة، لتنخرط فيما يُسمى «علاقات الحب» مع أطفالها. ويمكن أن تدمر حياة الشاب الأكثر حساسية في هذهِ العملية. النساء والصبيان يمثلون غالبية المرضى في ردهات الأمراض النفسية.

البنت، في ظل لغز الأنوثة تنشأ وهي عرضة لأن تكون مقيدة عاطفياً بدور الطفلة، أولئك اللواتي يتزوجن صغيرات ينقل طفولتهن إلى أطفالهن، تدعو بيتي فريدان ذلك بالتجريد التدريجي من الإنسانية.

تدليل التطفل في منازل الطبقة الوسطى يسبب ضرراً متساوياً، حيث يتم كل شيء من أجل الأطفال، كل شي تتم مراقبته من أجل راحتهم وسعادته. الإعلانات تغذي هذا الإسراف عبر حملات المبيعات الموجهة للطفل المدلل تدليلاً مفرطاً من قبل الأهالي ذوي الدخل المرتفع. يُخدع العامل بأن هذا التدليل يعني إعطاء أطفالهم الشيء «الأفضل». لكن في البيوت حيث المعيشة السهلة يميل الطفل للنمو لين العود، سلبياً وكسولاً، ومفتقراً للكفاءة. لا يقدر على تنظيم برنامج جاد للدراسة والعمل، يعوزه الطموح والحافز للنضج، يسعى الطفل منهم لملء فراغه الشاسع باللعب، كما تقول الكاتبة:

> يكشف الاستبيان، أن هؤلاء الأطفال لا يتوقون بشكل كافٍ لأي شيء حرفياً، لا يشعرون أنهم أحياء فعلياً. الأفكار، والمفهوم الفكري المتميز كان غائباً تماماً عن عقولهم وحياتهم.

هذا الغياب للهدف الحيوي، هذهِ اللامبالاة إزاء القيم الإنسانية، لاحظها أطباء الجيش وعلماء النفس الذين درسوا الأسرى العائدين من الحرب الكورية. كثيرون منهم لا يشبهون أسلافهم في شيء، فقدوا كل هدف، أصبحوا خاملين غير قادرين على التواصل، لا يفعل أي واحد منهم شيئاً لمساعدة رفاقه المرضى، بل أنهم يتخلون عن بعضهم وسط الثلوج، تاركين رفاقهم للموت. مثل هذا السلوك اللاإنساني، يفسره أحد الأطباء بكونه نتيجة الفشل في تمرين شبابنا على المهارات الإنسانية في فترة الطفولة والمراهقة.

التواصل الاجتماعي

تربط بيتي فريدان كل ما ترتب على العودة إلى المنزل والعائلة مع حالة التحفظ السائدة وفقدان الاهتمام بالشأن العام والحراك الاجتماعي.

ما حدث للنساء هو جزء مما حدث لنا كلنا في سنوات الحرب. وجدنا أعذاراً لعدم مواجهة مشاكلنا التي كانت لنا مرة الشجاعة لمواجهتها. تغط الروح الامريكية في سبات غريب. الرجال والنساء الليبراليين خائفين، والراديكاليين محبطين، والمحافظين منزعجين ويتهيبون كل تغيير في هذهِ الأمة التي توقفت عن النمو. وهكذا عدنا إلى دفء البيت المضيء.

التفكير في الحب والجنس أكثر أمناً من التفكير في الشيوعية، والمكارثية والتفجيرات الغير مسيطر عليها. النظر إلى جذور الجنس في السلوك البشري لدى فرويد، كان أسهل كمصدر لأفكار الإنسان وحروبه بدلاُ عن النظرة النقدية لمجتمعه، والعمل على تصحيح أخطائه. كان هناك نوع من التقهقر الشخصي حتى على صعيد أبعد الأعماق من أرواحنا، نكست رؤوسنا عن النظر إلى الأفق، لتحدق أسفل السرة.

هذا صحيح قطعاً، لكن ما البديل عن الانغماس التام في الحياة العائلية؟ تشخيص بيتي فريدان للمرض تفوق على ما تقترح من علاج. تقترح المؤلفة تعليماً أكثر جدية ومناهج دراسية أفضل مما يقدم حالياً للنساء، وتوفير أعمال أفضل بأجر جيد، للنجاة من هذا الفخ. هذا هو نفس الحل الفردي المحدود الذي قدمته النسويات السابقات، وقد ثبت لاحقاً عدم فعاليته. بعض النساء المحظوظات يمكن أن يفعلن ما تطالب بهِ المؤلفة؛ يتغيرن ويبدأن حياة جديدة، والهرب من قفص التدجين المنزلي، لكن خطط الحياة للغالبية العظمى من النساء محددة بقوى خارج سيطرتهن الشخصية، أنها قوة السلطات الحاكمة.

المرض الذي تصفه بيتي فريدان بكثير من الدقة والشجاعة هو نتاج كيان اجتماعي مريض تخضع فيه حقوق الأفراد والرعاية الاجتماعية والفرص المتاحة لهم لإملاءات الباحثين عن الربح. يمكن خلال الحرب الرأسمالية إخراج النساء من منازلهن بالملايين، للعمل في المصانع، لكن حين تنتفي الحاجة لوجودهن في حقل الإنتاج، تتم اعادتهن إلى منازلهن قسراً ليصبحن مستهلكات في المقام الأول. في كلا الحالتين لا يتم مراعاة حاجات النساء كأفراد، حيث الغلبة لمصالح الاحتكاريين. هؤلاء هم سادة الشكل الامريكي لحياة ومعيشة النساء وكل العائلة، وفقا لأهدافهم الفاسدة والمفسدة.

قدر النساء لا يمكن أن يتغير جذرياً حتى يتم فهم هذه الحقيقة، والتصرف وفقها. حققت النسويات في الماضي اصلاحات محدودة داخل إطار الرأسمالية المتصاعدة. لكن الرأسمالية اليوم

وصلت إلى حائط مسدود. من الجيد للنساء أن يصبحن عقولاً أكثر اجتماعية، كما تدعو بيتي فريدان، لكن هذا وحده ليس كافياً، يجب أن تصبح النساء عقولاً اشتراكية، لأن التغيير الجذري للنظام هو وحده الذي يمكن أن ينقذنا من تغربنا المستمر عن جوهرنا الإنساني.

Notes

[1←]
Affirmative action العمل التشجيعي أو العمل الإيجابي حسب بعض المصادر، ويُطلق عليه في بعض الأحيان «التمييز الإيجابي» للتفريق بينه وبين التمييز العنصري والتمييز الجنسي السلبيين. وهو ما تُعرف بهِ مجموعة السياسات التي تهدف إلى دعم الفئات المضطهدة والأقليات في المجتمع، لحمايتها وزيادة تمثيلها في المؤسسات وضمان عدم وقوع الحيف عليها سواء في نسبة التوظيف أو الأجور أو التمثيل الحكومي. (المترجمة)

[2←]
(هذا الخطاب تم تقديمه في 9 آيار 1969، في اجتماع يرعاه اتحاد طلاب لمجتمع ديمقراطي - Students for a Democratic Society SDS.) في جامعة ايموري، واتلانتا، وجورجيا، من المثير للاهتمام أن مسابقة ملكة جمال جامعة ايموري، كانت تُقام في نفس الوقت. كان الخطاب جزء من برنامج المؤتمر الاشتراكي الأول في الجنوب، والذي اقامه في نهاية ذلك الاسبوع اتحاد الاشتراكيين الشباب. Young Socialist Alliance.

[3←]

philosophy for the future.

[4←]
الخؤولة Avunculate مصطلح يرمز إلى العلاقة المميزة بين الخال وأبن أخته، وهي علاقة شبه أبوية.

[5←]
المصدر: Men in the Primitive World.

[6←]
الايروكواس تسمية لرابطة من قبائل السكان الأصليين في أمريكا والتي اتحدت في منطقة البحيرات العظمى. تتألف الرابطة من خمس قبائل: الموهوك، أونايدا، أنونداجا، كيجا، وسينيكا. وقد اتحدوا في القرن الثاني عشر، وأسسوا كونفدرالية. ثم انضمت اليهم قبيلة سادسة سنة 1720 وهي قبيلة توسكارورا (المترجمة)

[7←]

Cited by Robert Briffault in The Mothers.

[8←]

The Mothers.

[9←]

عنوان الكتاب في الأصل The feminine Mystique وقد صدر الكتاب باللغة العربية مؤخراً بترجمة عبد الله بديع فاضل. (المترجمة)

[10←]

هذه المقالة نشرت للمرة الأولى في ربيع عام 1954 في العدد الرابع من مجلة الإنترناشونال.

[11←]

فاكهة الخبز (بريد فروت) نوع من الأشجار الاستوائية المثمرة، موطنها الأساسي في غينيا الجديدة والفليبين ومنها انتشرت الى عدة أماكن منها بولينيزيا وهي أرخبيل من الجزر المتناثرة في وسط وجنوب المحيط الهادي. أما التابيوكا فهو نشأ يستخرج من جذور النبات يستخدم بكثرة في المطبخ الأسيوي إلى اليوم، وهو عبارة عن وجبة غنية بالكربوهيدرات. (المترجمة)

[12←]

women share in primitive culture.

[13←]

Anthropology.

[14←]

الجرابيات أوالشقبانيات مجموعة من الحيوانات الثدية التي تحوي على جراب (شقبان) تحمل به صغيرها، مثل الكنغر والكوالا والأبسوم. (المترجمة)

[15←]

Ibid.

[16←]

الشوشوني قبيلة من السكان الأصليين في الولايات المتحدة، يبلغ تعدادهم اليوم أكثر من أثني عشر ألف فرد. واسم شوشوني يعني العشب البري العالي نسبة لاستخدامهم الأعشاب في بناء المساكن. والقبيلة معروفة بشراسة مقاتليها ومقاومتهم للرجل الأبيض وقد أطلق عليهم المؤرخون تسمية الثعابين، وقد تعرضت القبيلة لمذبحة عظيمة على يد القوات الأمريكية في العام 1863عرفت بمجزرة نهر الدب التي راح ضحيتها المئات من الشوشني وبضمنهم الأطفال، كما تقلصت أعدادهم بسبب الأوبئة التي تعرضوا لها. (المترجمة)

[17←]

The golden bough.

[18←]

اليام: نبات استوائي شبيه بالبطاطا الحلوة، ومثل البطاطا يتكاثر بشكل درنات تحت الأرض، تحمل في داخلها النشاء والماء والسكر. (المترجمة)

[19←]

Principles of anthropology.

[20←]

Op.cit.

[21←]

What happened in history

[22←]

Op.cit.

[23←]

Man making himself.

[24←]

Ibid.

[25←]

Ibid.

[26←]

نبات المنيهوت أو البفرة أو الكاسافا شجيرة في المناطق الاستوائية وشبه الاستوائية، وتعتبر جذوره مصدراً رئيسياً للكربوهيدرات بعد غليها، ويتم استخراج نوع من النشأ من باقياه يدعى التابيوكا يستخدم كعلف للحيوان. تعتبر نيجيريا المنتج الأول لهذهِ الشجيرة في العالم وتليها تايلند. (المترجمة).

[27←]

the infancy of medicine.

[28←]

الشلموغرا شجرة من فصيلة الطهبيات الاستوائية، يستخرج من بذورها زيت يُستخدم بكثرة في الطب الهندي والصيني لعلاج العديد من الأمراض الجلدية لا سيما الجذام، وانتقل منها للاستخدام في العالم الغربي. أما الأكاسيا (وتعرف عربياً بالسنط، ومنها السنط العربي التي يستخرج منها الصمغ العربي) فشجيرة غالباً ما تكون شوكية (ماعدا الأنواع الأسترالية منها)، تحمل ثمار الشجيرة فصوصاً حاوية على العفص أو التانين لها خواص علاجية كثيرة. أما الحلتيت فهو نبات زهري كريه الرائحة تفرز جذوره صمغاً أقرب ما يكون إلى العلكة يستخدم في الطب الشعبي لتسكين الألم والتخفيف من الهلاوس والمساعدة في حالة الربو والتهاب القصبات وإدرار البول. ومضغة التنبول معروفة وقد وردت إلى العالم العربي من الهند وهو نبات أشبه باليقطين، يمضغ ورقه لما فيه من فائدة للمعدة والكبد وتقوية اللثة وتحسين الشهية، غير أنه له تأثيراً مخدراً على الإنسان. والقمعية أو قفاز الثعلب نبات زهري سام بشكل قاتل، لإزهاره مظهر جرسي الشكل أشبه بالقمع، يستخدم النبات في صناعة الأدوية إلى اليوم. عشبة الراوند من الخضروات الشبيهة بالكرفس، إلا أن أوراقها سامة، تستخدم سيقانها في المطبخ الأفريقي بكثرة، وتستخدم في الطب الشعبي لعلاج لمشاكل التنفس والنزيف ومشاكل عسر الطمث أو انقطاعه، ويعتقد أنها قادرة على تخفيف أعراض التسمم. نبات السينكا نبات أخذ اسمه من قبيلة السينكا وهم من السكان الأصليين في الولايات المتحدة، اعتادوا على استخدام النبات لعلاج لدغات الأفاعي. (المترجمة)

[29←]

Ibid.

[30←]

opi.cit.

[31←]

introduction to social anthropology.

[32←]

the mothers.

[33←]

قنب مانيلا هو نوع من الألياف الملونة المستخرج من نوع من الموز (نسيج موسى) وتستخدم في العديد من الصناعات، منها صناعة الورق. (المترجمة)

[34←]

Man making himself.

[35←]

Ibid.

[36←]

op.cit

[37←]

أرخبيل النار أو تييرا دي فويغا، مجموعة من الجزر في أقصى أمريكا الجنوبية، تقسم السلطة فيها بين الأرجنتين وتشيلي. وقد اسماها ماجلان أرض النار لرؤيته ناراً تشتعل فيها في الليل، والأرجح أن تكون تلك ظاهرة الشفق القطبي، لكون الجزر أقرب الأماكن المأهولة من القارة القطبية الجنوبية. (المترجمة)

[38←]

الغوناق حيوان بري يعيش في قارة أمريكا الجنوبية، من فصيلة الجمليات، ويعتبر صنفاً فرعياً من اللاما. (المترجمة)

[39←]

op.cit.

[40←]

op.cit.

[41←]

op.cit.

[42←]

op.cit.

[43←]

op.cit.

[44←]

The man making himself.

[45←]

op.cit.

[46←]

جزر الأندمان أرخبيل من الجزر بين مانيمار وخليج البنغال في الهند، موطن لقبائل الأندمان من السكان الأصليين. أما جزر باتوغونيا فتقع بين شيلي والأرجنتين، وتتوزع حدودها بين البلدين، وهي جزر كان يسكنها العديد من قبائل السكان الأصليين، إما اليوم فالسكان الأصليين هم أقلية مقارنة بباقي المكونات بسبب التوسع الاستعماري. تتبع جزر البوتكودو اليوم لولاية ميناس جرياس البرازيلية وهي ثالث المدن البرازيلية اكتظاظاً بالسكان. كانت مسكناً للسكان الأصليين وهم قوم البوتكودو إلا أن أعدادهم تقلصت بشدة اليوم بسبب تعرضهم لعمليات إبادة عرقية شرسة. شعب السيري من الشعوب الأصلية في المكسيك التي لا تزال محافظة حتى اليوم على لغتها وثقافتها، فقد حاربت وبشراسة ضد الغزو الإسباني والمكسيكي من بعده. (المترجمة)

[47←]

op.cit.

[48←]

op.cit.

[49←]

W. Scoresby and Katherine Routledge, With a Prehistoric People.

[50←]

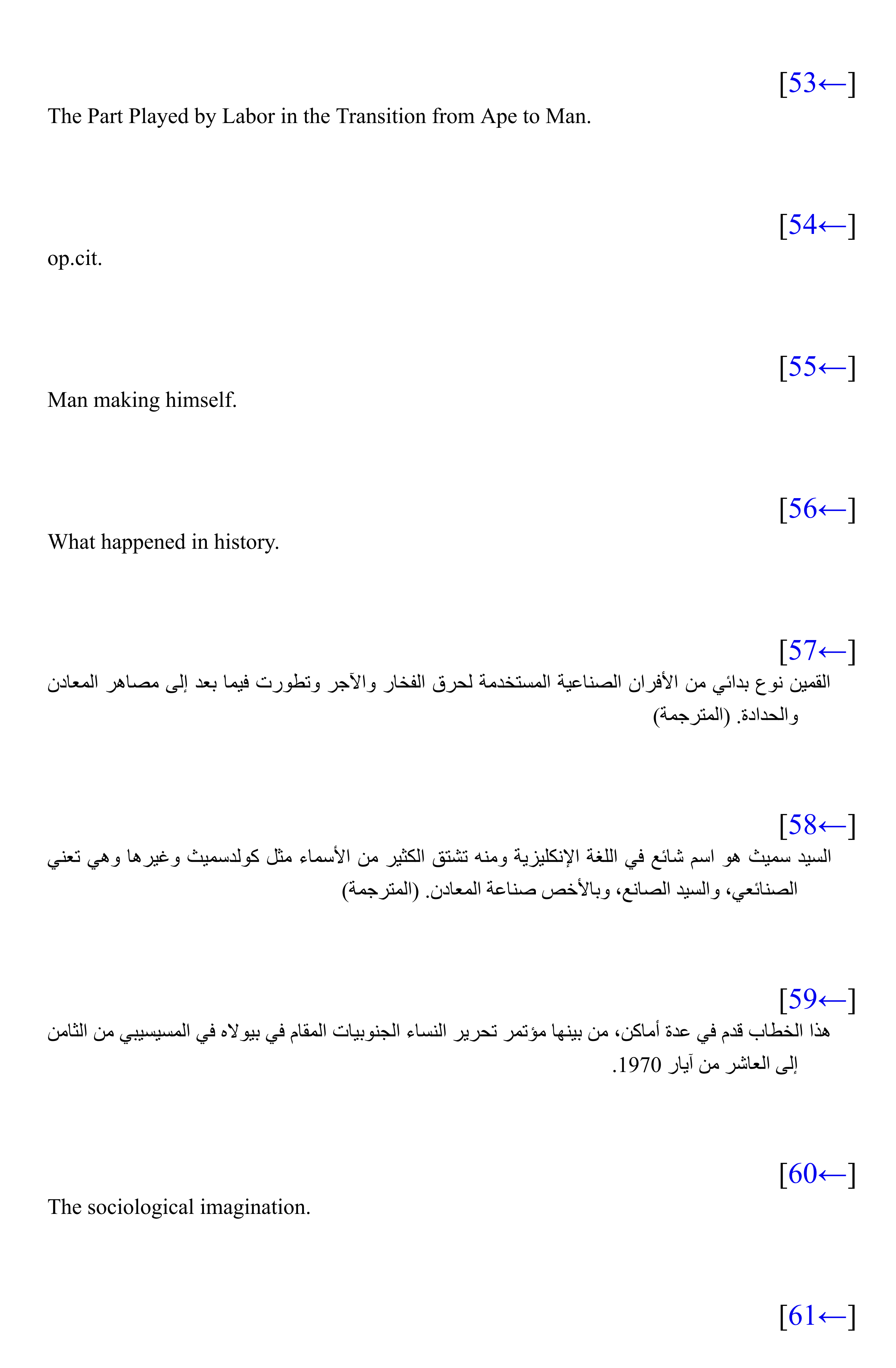
op.cit.

[51←]

op.cit.

[52←]

op.cit.



[53←]

The Part Played by Labor in the Transition from Ape to Man.

[54←]

op.cit.

[55←]

Man making himself.

[56←]

What happened in history.

[57←]

القمين نوع بدائي من الأفران الصناعية المستخدمة لحرق الفخار والآجر وتطورت فيما بعد إلى مصاهر المعادن والحدادة. (المترجمة)

[58←]

السيد سميث هو اسم شائع في اللغة الإنكليزية ومنه تشتق الكثير من الأسماء مثل كولدسميث وغيرها وهي تعني الصنائعي، والسيد الصانع، وبالأخص صناعة المعادن. (المترجمة)

[59←]

هذا الخطاب قدم في عدة أماكن، من بينها مؤتمر تحرير النساء الجنوبيات المقام في بيولاه في المسيسيبي من الثامن إلى العاشر من آيار 1970.

[60←]

The sociological imagination.

[61←]

The mothers.

[62←]

Sex and social struggle by V.F Calverton in V.F Calverton and S. D. Schmalhaussen, eds., Sex in Civilization.

[63←]

Origin Of the family.

[64←]

The mothers.

[65←]

The age of faith.

[66←]

Carol Hanisch and Elizabeth Sutherland Martinez, The Militant, December 26, 1969).

[67←]

هذهِ المقالة طبعت للمرة الأولى في International social review عدد أيلول/سبتمبر 1970.

[68←]

Origin of the family.

[69←]

Redstockings: الريد ستوكنغ مجموعة راديكالية نسوية تأسست في العام 1969 على يد الكاتبة والناشطة شولاميث فايرستون صاحبة كتاب ديالاكتيك الجنس، بالاشتراك مع الكاتبة الصحفية النسوية ايلين والاس. وهي مجموعة ثقافية تنتمي لليسار الثوري.(المترجمة)

[70←]
الشيكانو Chicanos اسم يطلق على جزء من الأقليات من أصل مكسيكي في الولايات المتحدة. وقد كان للشيكانو تيار خاص بهم في حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة منذ الاربعينيات. (المترجمة)

[71←]
هذه المقالة استخلصت من المناظرة النقاشية في حزب العمال الاشتراكي بعنوان «مسألة المرأة والنهج الماركسي» في أكتوبر 1954. وقد ظهرت كاملة في كتاب: مواد التجميل والموضة واضطهاد النساء.

[72←]
Revlon شركة تجميل أمريكية تأسست في نيويورك منذ الثلاثينيات من القرن الماضي، ولا تزال في نشاطها إلى اليوم. (المترجمة) .

[73←]
بوبو روكفلر هي باربرا بولكاس، وهي أبنة عامل منجم من المهاجرين، تطلق والداها وهي طفلة وعاشت مع أمها وقد فازت وهي في السابعة عشر من العمر بمسابقة للجمال. تزوجت من حفيد عائلة روكفلر العائلة الأغنى في الولايات المتحدة، ثم تطلقت بعد سنتين وحصلت على تسوية طلاق تزيد على ستة ملايين دولار. وكان حفل زواجها أسطورياً وأشارت لها الصحف على أنها سندريلا القرن. (المترجمة)

[74←]
Horatio Alger: روائي أمريكي مختص بالكتابة للشباب والناشئة (1832-1899) تدور كل قصصه تقريباً حول رجال شباب تمكنوا من الصعود من حضيض الفقر إلى أعلى درجات المجتمع عن طريق العمل الجاد والصدق والنزاهة. (المترجمة)

[75←]
Denim: قماش قطني أزرق، يستخدم لخياطة بدلات العمال. (المترجمة)

[76←]
أعادة طبع للمقال المنشور في عدد الشتاء لعام 1964 من مجلة International Socialist Review.

[77←]

WAM مأخوذ من الأحرف الأولى من عبارة Wife And Mother أي أم وزوجة. (المترجمة)

[78←]

من كلمة WAM السابقة الذاكر. المترجمة

[79←]

جادة ماديسون في نيويورك، الولايات المتحدة والتي يرتبط اسمها بصناعة الإعلان منذ العشرينات من القرن الماضي، ويستخدم اسم تقنيات جادة ماديسون للإشارة الى طريقة التلاعب بالمشاعر عبر الدعاية والإعلان. جماعة فتيان العمق جماعة تستخدم التقنيات النفسية في صناعة الإعلان. (المترجمة)

[80←]

الدكتور بنجامين سبوك طبيب أمريكي مشهور (1903-1998) كتبه في رعاية الأطفال والعناية بهم ألهمت العوائل الأمريكية والأمهات الأمريكيات طويلاً، ويتحدث فيها عن الرعاية النفسية للأطفال. كتابه الطفل ورعاية الأطفال الصادر في العام 1946 يعد من أكثر الكتب مبيعاً حول العالم. (المترجمة)